علاقة الصين بدار الإسلام

للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف

أستاذة التاريخ المساعدة

يرجع الاتصال بين الصين والعالم الاسلامى الى عهد « أسرة تانغ » التى حكمت الصين بين عامى ٦١٨ — ٩٠٥ م . وتروى المراجع الصينية أن محمدا عليه الصلاة والسلام بعث خطابا الى ملك الصين « تايتسونج » من ملوك أسرة تانغ فى سنة ٦٢٨ م ليهديه الى الاسلام ، بل ان بعض الروايات الصينية تذكر أن الملك « تايتسونج » هو الذى أرسل وفدا الى النبى عليه الصلاة والسلام ليطلب منه أن يبعث اليهم من ينشر الاسلام وتعاليمه فى الصين فأجابه عليه السلام الى طلبه ، وبعث مع الوفد ثلاثة من صحابته ، وهم قيس ووقاص وقاسم ، فتوفى الأولان منهم فى الطريق ، أما الثالث فقد أكرمه ملك الصين وأحسن ضيافته ، وأرسل الملك ثلاثة آلاف من جنود الصين مقابل ثلاثة آلاف من العساكر العرب ، وبنى لهم مسجدا فى العاصمة لنشر الاسلام ، كان نواة هذا الدين فى تلك البقاع [1].

ويفسر الرواة والمؤرخون الصينيون سبب اهتمام ملك الصين تايتسونج بأمر النبى عليه الصلاة والسلام ، أن هذا الملك رأى فى منامه فى السنة الثانية لحكمه الموافقة ٦٢٨ م حيوانا مفترسا يهاجمه ، وبينما هو لا يجد مخرجا من مأزقه هذا اذ برجل وقور يرتدى طيلسانا ويلبس عمامة بيضاء ، وبيده مسبحة قد أخذ يدافع عنه . ولما أصبح الصبح جمع الملك جميع وزرائه وأمرائه وقص عليهم رؤياه ، فقال قائل منهم : ان الحيوان المفترس رمز لثائر سيثور فى البلاد ، وأما

(١) الأستاذ الصينى المسلم « محمد تواضع » : الصين والاسلام (القاهرة ١٣٦٤ هـ) ص ٦١

الرجل الوقور فهو نبى من الأنبياء ، وقد ولد فى جزيرة العرب . ومعنى الرؤيا أن بلاد الصين لا يدوم أمنها وصلاحها بدون بركة هذا النبى العظيم [١] .

وقد أشار المؤرخون الصينيون [٢] الى الدين الجديد فى « مملكة المدينة » وذكروا مبادىء الاسلام قائلين : انها تختلف عن مبادىء بوذا ، وأن أتباعها لا تماثيل فى معابدهم ولا أصنام ولا صور . وأضافوا الى ذلك أن فريقا من المسلمين قدموا الى « كنتون » فى فاتحة أسرة تانج وحصلوا من امبراطور الصين على الاذن بالبقاء فيها ، واتخذوا لأنفسهم بيوتا جميلة تختلف فى طرازها عن البيوت الصينية ، وكانوا يطيعون رئيسا ينتخبونه من بينهم [٣] .

وفى بعض الأساطير عند المسلمين من أهل الصين أن الملك الأول من ملوك أسرة « صى » (٥٨٩ — ٦١٧ م) والملقب « وين تى » رأى فى ليلة من الليالى نجما باهرا فأمر رئيس الكهنة أن يتكهن له فوجد ذلك دليلا على ظهور رجل عظيم الشأن فى بلاد العرب . فأرسل الملك رسولا للتحقق من هذا الأمر . فوصل الرسول الصينى بعد سنة كاملة الى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وطلب منه أن يسافر بنفسه الى الصين ، فاعتذر اليه وبعث معه أربعة من صحابته منهم خاله سعد بن أبى وقاص . وروى أن رسول ملك الصين رسم صورة رسول الله سرا ، ولما رأى ملك الصين صورته عليه الصلاة والسلام سر بها كثيرا وعلقها على حائط بلاطه ليسجد له ، فمنعه سعد بن أبى وقاص ، ولما سأله الملك عن السبب أجاب : ان رسول الله يمنعنا من عبادة الصور والتماثيل ، وانه لا عبادة الا لله وحده .

---

(١) محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٦١

(٢) المرجع السابق ص ٨ و ٦١ — ٦٢ ، E. Bretschneider : On the knowledge possessed by the Ancient Chinese of the Arabs and Arabian Colonies (لندن ١٨٧١) ص ٦ ، Th. Arnold : The Preaching of Islam (الطبعة الثالثة لندن ١٩٣٥ ، ص ٢٩٤ — ٢٩٥

(٣) انظر : P. Dabry de Thiersant : Le Mahométisme en Chine باريس ١٨٧٨ ، ج ١ ص ١٩ — ٢٠ ، والدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام (القاهرة ١٩٤١) ص ٨

وقد أعجب الملك بهذا المبدأ وأمر ببناء جامع فى كانتون وسماه « خواى شينغ » أى « الشوق الى النبى » . وهذا الجامع موجود الى الآن ، ويقال ان سعد بن أبى وقاص كان أول من بشر بالاسلام فى الصين ، ويقال انه توفى فيها ودفن فى ظاهر مدينة كانتون بقبر لا يزال ينسب اليه [١] .

ونحن نعرف من المصادر العربية أن سعد بن أبى وقاص لم يذهب الى الصين أبدا ، والمعروف فى التاريخ الاسلامى أن سعدا حضر غزوة بدر والحديبية ، وكان بطل موقعة القادسية ، وحين ظهر النزاع بين على ومعاوية بقى محايدا . وتوفى بالعقيق على عشرة أميال من المدينة المنورة فى سنة ٥٤ هـ ، ويذكر الرواة أن مروان بن الحكم صلى عليه وأنه دفن بالبقيع .

أما سعد بن أبى وقاص أو « وقاص » الذى ذكرت المراجع الصينية أنه بشر بالاسلام فى الصين فتذكر المراجع الصينية أنه عاد الى بلاد العرب عن طريق البحر ثلاث مرات ، فى المرة الأولى للكتب الدينيـــة ، وفى الثانية لنسخة من القرآن الكريم ولاستشارة النبى عليه الصلاة والسلام فى مسألة الدعوى والارشاد فى الصين ، فقال له الرسول خذ معك ما نزل من الآيات ، وسأبعث اليك الآيات التى سأتلقاها من الوحى ، وذهب فى المرة الثالثة لعيادة الرسول حين سمع بمرضه ثم رجع الى الصين بنسخة كاملة من القرآن .. وقد توفى بكانتون ، وله مقبرة هناك باقية الى الآن .

وقيل أيضا أن سعد بن أبى وقاص بنى جامعا فى عاصمة الصين حينئذ وهى جانغ آن ، ثم أنشأ مسجدين آخرين أحدهما فى كيانغ نينغ (نانكين) والآخر فى كانتون ، واشتهر جامع كانتون باسم « واى شن تزى » ، أى «جامع الذكرى للنبى عليه الصلاة والسلام » ، وطبيعى أن صاحب الضريح لا يزال مجهولا عند المؤرخين ، وقد يكون اسمه مشابها لاسم سعد بن أبى وقاص [٢] .

---

(١) محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٦١ ــ ٦٢ دكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٩ ، الأستاذ الصينى المسلم « محمد مكين » نظرة جامعة الى تاريخ الاســلام فى الصين وأحوال المسلمين فيها (المطبعة الســلفية بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ) ص ٦ ــ ٩

(٢) انظر الأستاذ الصينى المسلم « بدر الدين حى الصينى » : العلاقات بين العرب والصين (مكتبة النهضة المصرية ــ الطبعة الأولى ١٩٥٠) ص ١٥٤ ــ ١٥٨

ولم يتفق كتاب الصين القدماء على سنة وصول الاسلام الى الصين ، كما أنهم لم يتفقوا على أول من جاء بالاسلام الى الصين .

والظاهر من الروايات التى ذكرها المؤرخون الصينيون أنها لا تقوم على أساس علمى صحيح . فالبعض يزعم أن الاسلام دخل الصين منذ عهد أسرة « صى » أو « صوى » ، أى بين سنة ٥٨٩ و ٦٠٥ م ، ويمكننا الرد على هذا بأن النبى عليه الصلاة والسلام كلف بالرسالة بعد سنة ٦٠٥ م ، أما السنوات التى بين ٦١٨ و ٦١٦ م فقد شغل الرسول فيها بالدعوة الى الاسلام ومناهضة كفار قريش . ولم يوجه الرسول عليه الصلاة والسلام الدعوة خارج شبه الجزيرة الا فى أواخر السنة السادسة للهجرة ، وهى توافق ٦٢٧ م ، ونلاحظ أن ابن هشام لم يذكر فى سيرته أى شىء عن ارسال النبى عليه الصلاة والسلام كتابا الى الصين يدعو الى الاسلام ، وان كان هـذا لا ينفى نفيا مؤكدا وجود أى اتصال بين المسلمين والصين فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام [١] .

وقد روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » . واذا كنا لا نستطيع أن نجزم بصحة هذا الحديث ونسبته الى الرسول عليه الصلاة والسلام فاننا نستدل منه على أن العرب كانوا يعرفون الصين كما كانوا يدركون بعدها عنهم .

***

لم تكن علاقة الصين بالعرب وليدة العصر الاسلامى ، بل بدأت قبل الاسلام بقرون . وكانت علاقة غير مباشرة أولا ثم تطورت الى علاقة مباشرة قبل ظهور الاسلام ، وقد توثقت تلك العلاقة فى العصر الاسلامى . والمعروف أن أسرة « تسين » التى حكمت من ٢٤٦ — ٢٠٧ ق.م وحدت البلدان الصينية وجعلت منها أمة واحدة . واتصلت الصين بالممالك المجاورة مثل بلاد الترك والهند وايران وغيرها . فظهر اسمها فى العالم ، وعرفت بلاد الصين من ذلك الحين باسم «الصين» عند العرب و « جين » عند الهنود والفرس والأتراك و China فى اللغات الأفرنجية ، وكلها محرفة عن كلمة « تسين » [٢] .

---

(١) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٥٢ — ١٥٣

(٢) محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٥

ومن الثابت أنه منذ القرن الثانى قبل الميلاد اتصلت الصين بطريق القوافل بالبلاد التى تقع غربها ، وكانت كلمة (البلاد الغربية) فى تاريخ الصين القديم تعنى البلاد التى تقع فيما وراء حدود الصين الغربية من التركستان الى البحر الأسود . وكانت قوافل الصين تتقابل مع قوافل ايران والعراق وبلاد آسيا الغربية فى بلاد ما وراء النهر مثل بخارى ، وقد يتصل تجار غرب آسيا بالصين مباشرة ولا يكتفوا بمقابلة تجار الصين فى بلاد ما وراء النهر . وكانت آخر محطة يصل اليها التجار شرقا هى مدينة « سى آن » عاصمة الصين القديمة وغربا مدينة « خيوا » عاصمة ايران .

أى أن الصينيين اتصلوا بايران مباشرة بطريق البر عن طريق بلاد التتار أو تركستان ، كما اتصلت العراق وأرمينيا والقسطنطينية بالصين بواسطة ايران . ومن المحتمل أتجار العراق أو الشام ومصر زاروا بلاد الصين مع القوافل التجارية التى كانت تتردد الى « سى آن » بين حين وآخر [١] .

والمعروف أن تجارة الحرير بين الصين وروما وبيزنطة كانت تمر بايران وبلاد الجزيرة آتية من وسط آسيا . وظلت هذه التجارة فى يد الايرانيين عدة قرون . وكان الصينيون والايرانيون قبل الاسلام بمدة طويلة يعجب كل منهم بالموضوعات الزخرفية على المنسوجات فى البلد الآخر ويعمل على محاكاتها ، فتخرج مصانع النسج أقمشة صينية نفيسة ذات زخارف ساسانية ، وأقمشة ايرانية ذات زخارف صينية ، بل ان فى القصص والأساطير الايرانية ما يدل على أن صناعا من الصين كانوا يعملون لبعض ملوك الدولة الساسانية فى صنع التحف والتماثيل ، ولم يضعف اتصال ايران بالصين حين نقصت تجارة المنسوجات الحريرية بسبب تربية دودة القز فى بيزنطة منذ منتصف القرن السادس الميلادى [٢] .

وقد جاء فى عدة مواضع من الشاهنامة للشاعر الايرانى الفردوسى ذكر التحف الواردة من الصين . من ذلك اشارة الى جارح أسود ، كان أكرم الجوارح على

---

(١) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٨ — ١٣

(٢) راجع الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ، ص ٧ ؛
E. Diez : Die Kunst der islamischen Völker, XVII ص

الملك بهرام ، وكان الخاقان ملك الصين قد أهـداه اليه « مع جملة من الهدايا والتحف وسائر ما يجلب من أرض الصين »[١] .

والراجح أنه حتى القرن الثـانى بعد الميلاد كانت الصـين تتصل مباشرة وبواسطة البر بالبلاد التى فى غربى آسيا ، خصوصا ايران وكانت علاقتها بروما وبيزنطة علاقة غير مباشرة . ولكن التجار الرومان والبيزنطيين جهدوا بعد ذلك فى انشاء رابطة مباشرة مع تجار الصين بحرا فى القرن الثانى الميلادى .

وكانت موانىء الشام ومصر هى طريق الاتصال بين الرومان والبيزنطيين من جهة ، وبين الصين من جهة أخرى . وذلك عن طريق البحر الأحمر وخليج فارس ومالابار وسرنديب وسومطرة وملقا وتونكين ، ومن ثم الى أقرب المرافىء بجنوبى الصين . وتعرف مصر فى المراجع الصينية باسم بلاد « هاى سى » أى بلاد غرب البحر ، وكان نهر النيل معروفا عند الصـينيين كذلك ، وكانت الاسكندرية معروفة لديهم باسم « كسند »[٢] .

ومما يبين اتصال مصر بآسيا الوسطى والأقاليم الغربية من الصين الزخارف القبطية التى ترى على قطعة من جلد كتاب عثرت عليه فى مدينة خوتشو ، البعثة العلمية الألمانية التى قامت بالحفائر فى طرفان وغيرها من المراكز الفنية فى بلاد التركستان الصينية ، كذلك لوحظ أن بعض الرسوم والتزاويق البوذية فى طرفان عليها مسحة مصرية قديمة ، مما يمكن تفسيره بأن أولئك الفنانين فى غربى الصين وصلهم شىء عن الفن المصرى القديم[٣] .

وتشهد الكتابات الأثرية والوثائق التـاريخية بازدهار التجارة بين الشرق والغرب منذ العصور القديمة ، وتعددت السلع التى كانت تنقل من أسواق الصين

---

(١) انظر كتاب الشاهنامة (طبعة الدكتور عبد الوهاب عزام) ج ٢ ص ٨٨ ، والدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢١ — ٢٢

(٢) انظر :

Hirth (F.) and Rockhill (W.) : Chau Ju-Kua
(St. Petersburg, 1911) p. 5
Hirth (F.) : China and the Roman Empire
pp. 175, 180—181 (Leipzig 1885)

وبدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٢ — ١٤

(٣) انظر الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٧ — ٨ وما ذكره من مراجع وما أشار اليه من أشكال .

والهنـد وبلاد العرب والحبشـة وافريقية الشرقية الى بلاد الشـام ومصر والامبراطورية الرومانية . والمعروف أن الطرق التجارية الأساسـية بين الشرق والغرب فى العصور القديمة والعصور الوسطى كانت ثلاثة ، فكان هناك الطريق البرى الذى كان يأتى من الصين الى نهر أكسوس (جيحون) ويلتقى بالطريق البرى الذى يسير فى الجبال من الهند الى نهر جيحون ، ويتفرع بعد ذلك عند بخارى أوسمرقند ، ويؤدى فرع منه الى شمالى بحر قزوين ثم نهر الڤلجا ، ويسير الثانى الى جنوبى بحر قزوين فالبحر الأسود عند طرابيزون والقسطنطينية ، وكان هذا الطريق يعبر الجبال العالية والمسافات الطويلة ، فلم يكن يصلح الا لنقل السلع الصغيرة الحجم والغالية الثمن .

أما الطريق الثانى فكان بحريا فى جزء كبير فكانت السفن تأتى من الصين والهند الى اليمن مباشرة أو الى عمـان حيث تنقل السلع بالقوافل الى اليمن ، وكان من عيوب هذا الطريق المسافة الطويلة التى كان على السفن أن تجتازها فى عرض المحيط الهندى من ساحل الهند الى البحر الأحمر . وقد أمكن التغلب على هذا العيب حين كشف الملاحون امكان الافادة من الرياح الموسـمية ، وكانت السفن التى لا تفرغ السلع فى اليمن بل تتقدم فى البحر الأحمر تلاقى صعوبة كبيرة فى الملاحة فى هذا البحر ، وكان علاج هذا أن تتجنب السفن الملاحة فى القسم الشمالى من هذا البحر ، وأن تتجه الى بعض الموانىء المصرية الواقعة فى غربى البحر الأحمر مثل برنيقة Berenice مقابل مدينة أسوان ، وذلك فى العصور القديمة ومثل عيذاب فى العصر الاسلامى . أما أقدم هذه الطرق وأعظمها شأنا فكان الطريق الأوسط بين الطريقين السابقين ، وكان الجزء البرى فيه يبدأ عند الخليج الفارسى (أو خليج البصرة أو الخليج العربى) أو من احدى المدن على دجلة أو الفرات ثم تنقل البضائع بطريق الصحراء الى دمشق ، ومنها الى موانىء الشام على البحر المتوسط أو الى مصر .

***

ونحن نعرف أنه بعد وفاة الأسكندر الأكبر المقدونى سنة ٣٢٣ ق.م ، قام النزاع بين خلفائه ودامت الحروب الأهلية بينهم نحو أربعين عاما ثم تمخضت عن استقرار الحكم لثلاثة من قواده هم : بطليموس الذى أسس دولة البطالمة فى

خريطة تبين الطريق البحرى إلى الصين من الأبلة وسيراف إلى كانتون

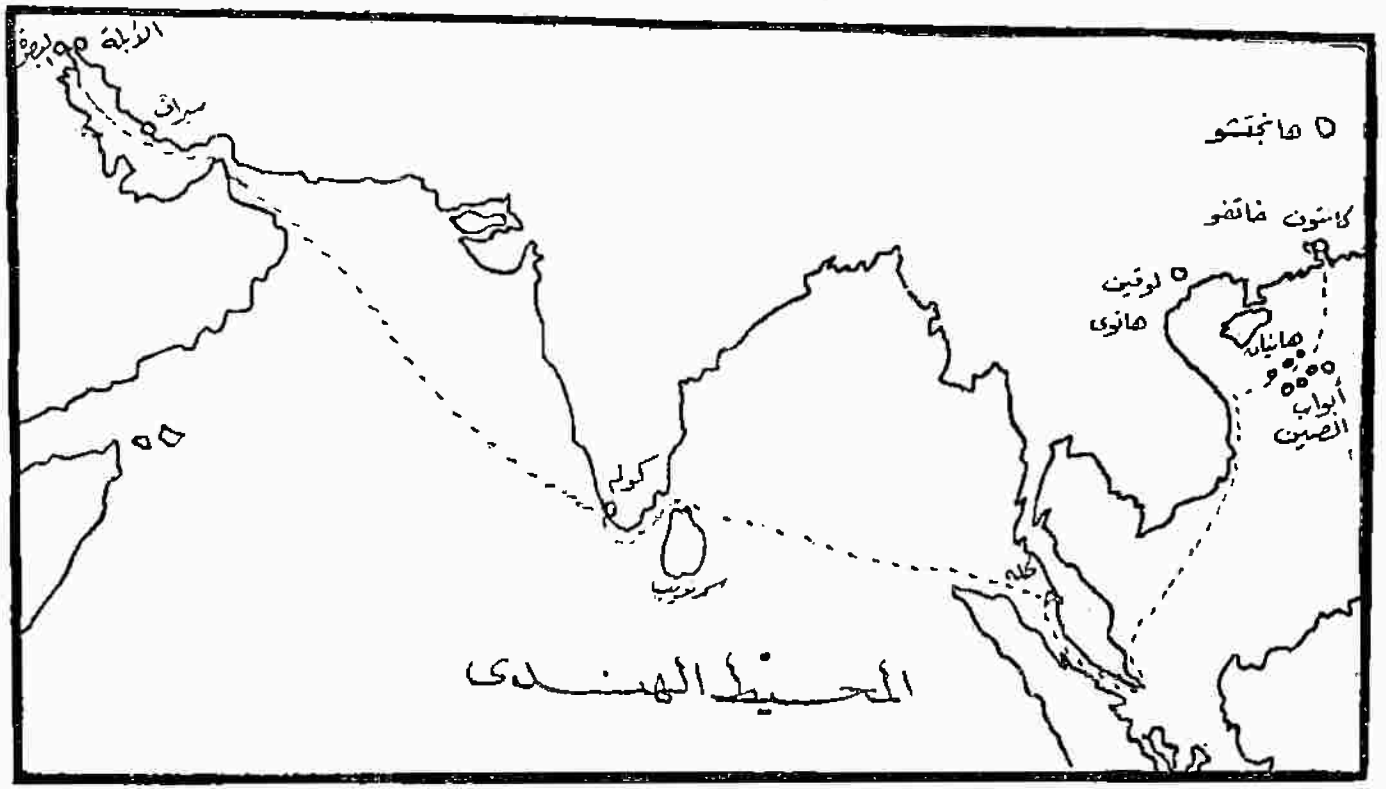

مصر وأنتيجونوس Antigonus الذى حكم فى مقدونية وبلاد اليونان ، وسلوقس Seleucus الذى أسس دولة السلوقيين فى الشام وبلاد الرافدين وايران ، ولكن نفوذ السلوقيين لم يلبث أن زال عن ايران وضعف اهتمامهم بالجزء الشرقى من امبراطوريتهم ، ثم انتهى نفوذهم فى العراق نحو سنة ١٣٥ق.م وأصبح مقصورا على الشام ، وكان ذلك بسبب قيام دولة ايرانية نحو سنة ٢٥٠ ق . م تسمى دولة البارثيين أو الفرثيين Parthians قامت فى هضبة ايران ، ثم مدت نفوذها الى العراق وظلت تحكم الى أن خلفتها الدولة الساسانية سنة ٢٢٦ بعد الميلاد . كما أن الحاميات اليونانية فى وادى سيحون وجيحون فى بلاد التركستان لمست ضعف العناية التى يوجهها السلوقيون الى هذا الاقليم ، فاستقلت نحو سنة ٢٦٠ ق.م وأسست دولة صغيرة هى دولة بكتريا Bactrea (أو دولة البخت) ومدت سلطانها الى الأقاليم الشمالية الغربية من الهند واستطاعت أن تعيش على احتكار التجارة الواردة من الصين وآسيا الوسطى ولكنها لم تستطع الصمود أمام ضغط البارثيين فسقطت فى القرن الثانى قبل الميلاد .

وعمل ملوك البارثيين فى ايران والعراق على تحويل جزء كبير من تجارة الهند والصين الى الطرق البرية والى طريق الخليج الفارسى ، ولكن التجار اليونان فى مصر والشام عملوا على تنشيط التجارة مع الشرق بطريق البحر الأحمر ، وعنى البطالمة فى مصر بتشجيع التجارة بين الموانىء المصرية على البحر الأحمر والبحار الجنوبية وأصلحوا الطرق بين وادى النيل والموانىء المصرية على البحر الأحمر ، كما أصلحوا القناة التى كانت تصل الفرع البلوزى[1] من فروع النيل فى الدلتا بالبحيرات المرة وخليج السويس ، وشيدوا السفن التى كانت تسير فى البحر الأحمر الى خليج عدن حيث تلتقى بالملاحين والتجار من العرب الجنوبيين والهنود . ولما تم استيلاء الرومان على الشرق الأدنى نحو سنة ٣٠ ق.م زادت العناية بتجارة الشرق وظل التنافس قويا بين الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الايرانية فى السيطرة على التجارة بين المحيط الهندى والبحر المتوسط .

---

(١) نسبة الى مدينة بلوزيوم Pelusium القديمة أو الفرما على البحر المتوسط شرقى بور سعيد الحالية .

وفى بداية العصر الرومانى كانت سيطرة العرب الجنوبيين على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر من القوة بحيث استطاعوا الاحتفاظ باحتكار الوساطة بين التجار القادمين من مصر أو موانىء البحر المتوسط ، والتجار القادمين من الشرق ، فكانوا يمنعون كل فريق من أن يجاوز خليج عدن للاتصال رأسا بالفريق الآخر ، فكانت البضائع تخزن فى الموانىء العربية ، ثم يتولى التجار العرب نقلها ، ولكن الرومان لم يصبروا طويلا على هذه الوساطة فسيروا السفن يحرسها الجنود .

ويبدو أن البحارة العرب كانوا يستخدمون الرياح الموسمية فى الملاحة من خليج عدن الى الساحل الهندى ، ولكن الاستعانة بهذه الرياح لم تكن معروفة للملاحين الرومان قبل منتصف القرن الأول الميلادى ، فلما فطنوا اليها قضى ذلك على سيطرة العرب الجنوبيين على التجارة بين الشرق والغرب ، ونمت التجارة بين مصر (التابعة للرومان) والهند رأسا . والظاهر أيضا أن الملاحة البحرية لم تكن منظمة قبل عهد الساسانيين [١] .

ومنذ القرن الخامس الميلادى تقدمت الملاحة بين غربى آسيا وشرقيها على يد ملاحين من الهنود والعرب والفرس والصينيين ، وأدى ذلك الى الملاحة فى عرض المحيط من جزيرة سرنديب الى ملقا (الملايو) وجاوة والموانىء الجنوبية فى الصين وكانت النتيجة لزوال احتكار العرب لتجارة الشرق ان ضعف شأن الموانىء التجارية فى شبه الجزيرة مثل عدن وجرة (الجرعاء) ثم دب الاضمحلال الى بلاد اليمن .

وقد اتسعت التجارة بين الصين والهند ، وبين موانىء البحر المتوسط فى القرن السادس الميلادى بطريق سرنديب (سيلان) وزاد اتساعها فى القرن السابع الميلادى ، وأصبح ثغر سيراف على الخليج الفارسى مركزا لتوزيع البضائع الصينية فى ايران وبلاد العرب ، وقد ذكر المسعودى أن سفن الصين والهند كانت ترد فى نهر الفرات الى ملوك الحيرة [٢] . ويروى البلاذرى [٣] أن عتبة بن غزوان

---

(١) Hadi Hassan : A History of Persian Navigation (London, 1928) p. 54

(٢) المسعودى : مروج الذهب (طبع مصر سنة ١٣٤٦ هـ) ج ١ ص ٦٢ ، الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام . ص ٧

(٣) فتوح البلدان (القاهرة ١٣١٩ هـ و ١٩٠١ م) ص ٣٤٩

حين فتح الأبلة[١] كتب الى عمر بن الخطاب يعلمه ذلك ويخبره أن الأبلة فرضة البحرين وعمان والهند والصين .

وقد ذكر المسعودى [٢] أن خالد بن الوليد حين فتح الحيرة زمن أبى بكر ، خاطب عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغسانى وقال له : ماتذكر ؟! قال : «أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون » .

***

وكان أقدم اتصال سياسى بين الصين والشرق الاسلامى بطريق البر ، اذ أن يزدجرد كسرى فارس فر بعد انتصار العرب فى موقعة نهاوند الى الصين ، وكان فراره نذيرا للامبراطور الصينى « تانغ تائى جونغ » بتقدم القوة الجديدة الناهضة من بلاد العرب نحو الشرق الأقصى ، ويظهر من المراجع الصينية أن امبراطور الصين كان يعطف على آخر الورثة لعرش الأكاسرة ، فوعده بأن يمده باعانات عسكرية ولوازم حربية ، وكان لهذا الوعد أثر بالغ فى نفس يزدجرد ، اذ رجع مع جماعة من عساكر التتار الذين كانوا يعترفون بسلطة امبراطور الصين آملا بذلك أن يستعيد سلطانه وأملاكه التى استولى عليها العرب[٣] غير أن يزدجرد لم يتح له فرصة الاشتباك ثانية مع العرب ، اذ غدر به أهل مرو ، وقتل فى سنة ٣١ هـ (٦٥١ م)[٤] .

وتذكر المصادر العربية أن فيروز بن يزدجرد كتب الى امبراطور الصين

---

(١) الابلة ، بضم اوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها : بلدة على شاطىء دجلة فى زاوية الخليج الذى يدخل الى مدينة البصرة ، وهى اقدم من البصرة ، لان البصرة مصرت أيام عمر بن الخطاب (ياقوت : معجم البلدان ـ الطبعة الأولى ـ طبع مطبعة السعادة سنة ١٣٢٣ هـ ـ ج ١ ص ٨٩ ـ ٩٠

ويقول جلازر ان Apologus ابو لوجوس هى الابلة عند العرب و Ubulum فى النقوش الاكادية ، ولم تكن بعيدة عن مدينة المحمرة وهذه تبعد نحو ٧٥ ك . م عن شاطىء الخليج الفارسى . انظر Glaser (E.) : Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens (Berlin 1890) vol. 2 pp. 188—189

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٦٢

(٣) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٣ ـ ٢٤

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤

يسأله المساعدة فى صد غارة العرب الذين فتحوا بلاده ، ولكن امبراطور الصين أبى أن يقدم اليه المدد العسكرى المطلوب محتجا ببعد الشقة [١] .

أما المصادر الصينية فتذكر أن امبراطور الصين « تانغ كاوجونغ » (تانج كاوتشونج) الذى ارتقى عرش الصين بعد أبيه « تانغ تائى جونغ » رحب بفيروز ابن يزدجرد وأسكنه فى عاصمته . وكان لفيروز ابن باسم جده أى يزدجرد ، وكان فى نية « تانغ كاوجونغ » أن ينصبه ملكا على ايران بعد وفاة فيروز ، لكنه فشل فى محاولته لأن العرب كانوا قد تقدموا فى آسيا الوسطى وتمكن حكمهم فيها ، فضلا عن بعد المسافة وعدم انتظام المواصلات ، فاكتفى امبراطور الصين بالانعام عليه بلقب « ملك ايران » وولاه ولاية من ولايات تركستان التى كانت جزءا من مملكة جده [٢] .

وقد قيل فى هذه المناسبة ان امبراطور الصين من أسرة « تانج » أرسل الى المدينة مندوبا من قبله للدفاع عن قضية فيروز ، وليتبين قوة الجماعة الاسلامية الفتية ، وقيل أيضا أن الخليفة عثمان بن عفان أرسل أحد قواد العرب لمرافقة السفير الصينى فى عودته سنة ٣٠ هـ (٦٥١ م) وان امبراطور الصين أكرم وفادة هذا القائد ، ويعتقد بعض المؤرخين أن دخول الاسلام فى الصين بدأ منذ ذلك الحين [٣] .

***

وبالرغم من الاختلافات حول تاريخ وصول الاسلام الى الصين ، وأول من جاء بهذا الدين اليها ، فأكبر الظن أن وصول الاسلام الى الصين بحرا كان أسبق من وصوله برا ، وذلك على يد التجار الذين ساروا فى الطريق البحرى الذى كانت تتبعه السفن التجارية .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٦٤ ؛ ج ٥ ص ٧٣ (الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية) .

(٢) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين . ص ٣٢ — ٣٣

(٣) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٩ ، محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٨ ، ٦٢ — ٦٣ ، بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٦٠ ، ١٨٠

وتؤكد المصادر الصينية وصول وفد رسمى من العرب الى عاصمة الصين فى خلافة عثمان بن عفان سنة ٣٠ هـ (٦٥١ م) بطريق البحر ، وقد يكون دخول الاسلام فيها بعد وصول هذا الوفد [١] .

***

وفى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ = ٧٠٥ — ٧١٥ م) بدأت مرحلة جديدة فى العلاقات السياسيـة والدبلوماسية بين العرب والصين . اذ بلغت الدولة الأموية فى عهد هذا الخليفة الذروة فى التوسع شرقا وغربا . وقد زحف القائد العربى قتيبة بن مسلم الباهلى الى آسيا الوسطى بأمر من والى العراق الحجاج بن يوسف الثقفى . فقاد قوة جـديدة من العرب الى خراسان ، وكانت له فيها حروب وفتوح ، ثم عبر نهر جيحون (امودريا Oxus) وحارب أتراك ما وراء النهر الذين لم يكونوا قد خضعوا بعد لحكم العرب ، برغم هزيمتهم قبل ذلك على يد قواد قبله . وقد أعز الله قتيبة بفتح سمرقند التى كانت مليئة بالمعابد الوثنية وكان له الفضل فى انشـاء أول مسجد هناك ، وفى تحطيم أصنامها ، وأعقب قتيبة ذلك النصر بفتح بخارى وتأسيس جامع معروف باسم « جامع قتيبة » لا يزال باقيا الى يومنا هذا . وتوالت انتصارات هذا البطل العربى فى اقليم ما وراء النهر فغزا بيكند ، وكش ، والشاش (طشقند اليوم) ، وفرغانة ، وأشروسنة [٢] . ثم فتح قتيبة كاشغر فى التركستان الصينية ، وهى أقرب المدن الى الصين (٩٦ هـ = ٧١٥ م) ، وأرسـل الى امبراطور الصين « يوانغ جونغ » وفدا مع رسـالة يطلب منه الطاعة والجـزية [٣] . وقد ذكرت المصادر العربية أن ملك الصين قال لهبيرة بن مشمرج الكلابى زعيم الوفد العربى « انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فانى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه والا بعثت عليكم من يهلكم ويهلكه » فأجاب هبيرة : « كيف يكون قليـل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟! وكيف يكون

---

(١) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٥٨ — ١٥٩ ؛
Bretschneider : On the knowledge possessed ... pp. 9 & 46
واقرأ عن انتشار الاسلام فى الصين مقال الأستاذ « هارتمان » فى دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الصين » Hartmann

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٢٦ — ٤٢٨

(٣) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٧

حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ ! وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فأكرمها القتل !! فلسنا نكرهه ولا نخافه » قال : « فما الذى يرضى صاحبك ؟ ! قال : « انه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية » قال : « فانا نخرجه من يمينه ، نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطأه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث اليه بجزية يرضاها » « فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم ، فساروا ، فقدموا بما بعث به ، فقبل قتيبة الجزية وختم الغلمة وردهم ، ووطىء التراب » [١] .

والواقع أن مجهودات قتيبة بن مسلم الباهلى العظيمة ، ومن جاء بعده من القواد العرب زمن الأمويين جعلت اقليم ما وراء النهر يندمج بامبراطورية الاسلام الناشئة . وكان ذلك فاتحة لاتصال العالم الاسلامى بأواسط آسيا وبالجنس التركى الذى اتيح له بعد ذلك أن يكون ذا شأن عظيم فى شئون الدولة الاسلامية ، وخاصة فى العصر العباسى ، كذلك كان لقتيبة بن مسلم ومجهوداته الفضل فى أن تصبح بخارى وسمرقند واقليم خوارزم مراكز للثقافة العربية ، ولنشر الاسلام فى آسيا الوسطى ، كما كانت مرو ، ونيسابور فى خراسان .

وقد زادت فتوحات قتيبة بن مسلم من الاتصال بين الدولة الاسلامية وبين الصين فى أشكاله المختلفة سواء أكان سياسيا أو تجاريا أو دينيا أو فنيا أو ثقافيا .

والمعروف أن العرب حين فتحوا فرغانة فى اقليم ما وراء النهر وجدوا فيها شيئا كثيرا من بدائع التحف الصينية . ولا غرو فان هذه الأقاليم تقع على مقربة من حدود الصين ، وكان أهلها متصلين بالصين منذ العصور القديمة ، كما أن صناعا من الصينيين كانوا بين الأسرى الذين وقعوا فى يد العرب حين فتحوا تلك الأصقاع [٢] .

وقد ذكرت المراجع التاريخية أن قتيبة بن مسلم الباهلى رضى بهدية امبراطور الصين ، اذ وصل اليه حينئذ خبر وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وبيعة أمراء

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك (حوادث سنة ٩٦ هـ) ج ٨ ص ١٠٠ — ١٠١

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٩

دمشق لسليمان بن عبد الملك ، وكان سليمان بن عبد الملك يحقد على قتيبة وغيره من الزعماء الذين استشارهم الخليفة الوليد فى عزله عن ولاية العهد فوافقوا الخليفة على عزله . وقد تحقق ظن قتيبة اذ أرسل الخليفة سليمان بن عبد الملك يعزل قتيبة ، وما لبث قتيبة أن قتل .

وقد توقفت فتوحات العرب الى الشرق الأقصى بعد مقتل قتيبة وتخلصت الصين بذلك من غزو العرب لها . لكن الصين لم تستطع مقاومة نفوذ الدين الاسلامى الذى كان ينتشر بسرعة الى أواسط آسيا مع الفتوحات . ومن الراجح أن بعض أهالى تركستان الصينية قد اعتنقوا الاسلام زمن قتيبة .

ولم تغفل المراجع الصينية القديمة الكلام عن حركة ظهور الاسلام وعن العرب ؛ والاسلام الذى أخذ يتقدم الى آسيا الوسطى والى الهند فى عصر بنى أمية [١] . وكان من الذين أسلموا من أهالى آسيا الوسطى فى أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثامن الميلادى الأواغرة أو شعب أويغور ، أو الأويغوريون ؛ وهم فرع من التتار كانت لهم علاقات سياسية مع الصين بعد زمن قتيبة ، أى بعد توقف الفتح العربى فى الشرق ، وهم آباء المسلمين الصينيين [٢] .

***

وتشهد المصادر الصينية بوجود جموع من المسلمين فى الصين فى عهد أسرة « تانج » ، وكان معظمهم من التجار الذين نزلوا الثغور . ولا عجب فقد كانت التجارة بين الشرق والغرب فى يد المسلمين الى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، وكان التجار المسلمون يبحرون من الخليج الفارسى الذى كانوا يسمونه فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) الخليج الصينى [٣] ، ويعبرون المحيط الهندى مارين بسرنديب (سيلان) وجزائر البحار الجنوبية الى أن يصلوا موانى الصين التجارية . وقد قل مجىء الصينيين أنفسهم

---

(١) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٤٦ — ١٤٧

(٢) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٣٠ — ٣١ ،

(٣) Ph. Walter Schulz : Die persisch-islamische Miniaturmalerei الجزء الأول ص ٤٨

الى الخليج الفارسى منذ بداية القرن التاسع الميلادى وزاد سفر العرب الى البحار الجنوبية [١] .

والواقع أن هذا الطريق البحرى الذى يمتد من الخليج الفارسى الى موانىء الصين كان أول طريق استعمله الانسان بانتظام قبل التوسع الأوربى فى القرن السادس عشر الميلادى . ولا ننسى أن الفضل فى قيام وازدهار تجارة بحرية بين الخليج الفارسى والصين فى العصر الاسلامى يرجع الى قيام امبراطوريتين عظيمتين على طرفى الطريق . فقد كان العالم الاسلامى زمن الأمويين يمتد من اسبانيا وجنوب فرنسا الى حدود الصين (٤١ — ١٣٢ هـ = ٦٦١ — ٧٤٩ م) .

وظل العالم الاسلامى متحدا قويا بعد ذلك حوالى قرن أو يزيد تحت ظل الخلفاء العباسيين فيما عدا اسبانيا وشمال أفريقية (١٣٢ — ٢٥٧ هـ = ٧٥٠ — ٨٧٠ م) .

أما فى الصين فقد ملكت أسرة تانج ٦١٨ — ٩٠٦ م على امبراطورية متحدة حتى آخر أيامها .

ونلاحظ أيضا أنه قد اتيح للعرب بفتح السند على يدى قواد الحجاج بن يوسف الثقفى بعد سنة ٩٢ هـ = ٧١٠ م الاستيلاء على ميناءى الديبل [٢] والمنصورة [٣] الهامين ، وبذلك اقتربوا من الشرق الأقصى .

***

وقد ذكرت المراجع الصينية أن سفارة بعثت من دمشق فى سنة ٩٨ هـ = ٧١٦ م من قبل أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك لتقديم الهدايا الى امبراطور

---

(١) راجع W. Heyd : Histoire du Commerce du Levant (Leipzig 1923) ص ٢٩ ج ١

(٢) الدَّيْبُل عند مصب نهر السند ، ولا يعرف مكانها على وجه التحديد (انظر مادة « ديبل » فى دائرة المعارف الاسلامية) ، أما ياقوت فيقول انهامدينة مشهورة على ساحل بحر الهند (معجم البلدان ج ٤ ص ١١٨) .

(٣) قد تكون المنصورة هى حيدر باد على نهر السند الآن . انظر H. M. Elliot : The History of India (لندن ١٨٦٧ م —) الجزء الأول ص ٣٦٩ — ٣٧٤ ، وانظر دائرة المعارف الاسلامية مادة « المنصورة » .

الصين . وقد حملت هذه السفارة معها عباءات منسوجة بخيوط من الذهب ، وعطور وعقيق وأشياء نفيسة غير ذلك ، وقد وصف أعضاء هذه السفارة بلادهم وقدموا بيانا كافيا عنها ، وأنعم امبراطور الصين على السفير برتبة الفارس من الدرجة الأولى ، ثم ودعه باحترام كبير واكرام عظيم [١] .

***

وكان الصينيون يطلقون على العرب كلمة « تاشى » ، وقد تكون هذه الكلمة محرفة عن كلمة « تاجر » العربية ، ذلك لأن معظم العرب الذين دخلوا الصين كانوا تجارا ، وقد تكون كلمة « تاشى » منقولة عن كلمة « تازى » الفارسية التى يطلقها الفرس على العرب [٢] أما كلمة « تازى » الفارسية فهى مأخوذة من كلمة تاجك فى البهلوية [٣] .

ونحن نعرف من المراجع الصينية أن سبع عشرة سفارة وردت من العرب الى عاصمة الصين زمن الأمويين ، وخمس عشرة زمن العباسيين [٤] .

والمعروف أن هذه السفارات لم تكن كلها واردة من مقر الخلافة من دمشق أو بغداد ، اذأن كلمة « تاشى » كانت تطلق على كل العرب ، أو جميع سكان الامبراطورية الاسلامية ولذا كانت السفارات من عاصمة الخلافة أو من أمراء آسيا الوسطى وغرب الهند وبلاد ما وراء النهر . فمثلا نسمع عن سفارتين وردتا الى الصين فى سنة ١٠٧ هـ = ٧٢٥ م وكان « سليمان » رئيسا لهاتين السفارتين وكان يرافقه ثلاثة عشر عربيا ، والراجح أن هاتين السفارتين لم تكونا الا من منطقة قريبة من بلاد الصين ، لأن ورودهما فى مدى شهرين لا يمكن أن يكون من دمشق الى « جانغ آن » عاصمة الصين ، ويظهر من تاريخ العرب فى آسيا الوسطى أن « سليمان » هذا هو « سليمان بن أبى السارى » الذى اشترك فى محاصرة بلد « خجند » القريبة من كاشغر تحت قيادة سعيد بن عمر الحراشى ،

---

(١) E. Bretschneider : On the knowledge possessed ... ... p. 61

(٢) محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٦٣

(٣) انظر هرتمان M. Hurtmann فى مقال China فى دائرة المعارف الاسلامية ومما ذكره أن الصيغة الفارسية مأخوذة من Tayyâyê « عرب طيىء » فى الأرامية .

(٤) بدر الدين حى الصين : العلاقات بين العرب والصين ص ١٨١

وكان ذلك فى سنة ٧٢٢ م ، ولعل أسد بن عبد الله بعثه الى الصين فى سنة ٧٢٥ م / ١٠٧ هـ[١] .

كذلك وردت الى الصين سفارة فى سنة ١١٥ هـ = ٧٣٣ م من قائد عربى اسمه « جنيد » ، وكان « جنيـد » من بين الذين اشتركوا فى فتح بخـارى وسمرقند للمرة الأخيرة تحت امارة نصر بن سيار فى خلافة هشام بن عبد الملك الأموى . ويرى الأستاذ « جب » Gibb أن جنيدا اتصل بأمبراطور الصين فى آخر عهده بسمرقند فى سنة ١١٥ هـ = ٧٣٣ م . ويظهر من اسم رئيس هذه البعثة وهو « مسلم ترخان » أن أصله من الترك[٢] .

كذلك نرى أنه بعد أن ستقر نصر بن سيار فى سمرقند بعث عدة سفارات الى الصين فى سنة ٧٤٤ م / ١٢٧ هـ ، ٧٤٥ / ١٢٨ هـ ، ٧٤٧ م / ١٣٠ هـ ، وذلك لأنه شعر أن حكومة ما وراء النهر تحتاج الى تدعيم من الطبقات المتوسطة خصوصا طبقات التجار والمزارعين ، وقد أراد نصر تنظيم العلاقات التجارية بين تلك البلاد وبين الصين[٣] .

***

وقبل زوال الخلافة الأموية سـنة ١٣٢ هـ = ٧٤٩ م فر بعض الشيعة فى خراسان من الاضطهاد ، وأقاموا فى جزيرة بأحد الأنهار الكبيرة فى الصين تجاه أحد الموانىء،وقد ذكر هذه الرواية المَرْوَزِى فى القرن السادس الهجرى(حوالى ٥١٤ هـ) ، والثانى عشر الميلادى (حوالى ١١٢٠ م) ، ويصف المروزى[٤] الجالية بأنها كانت لا تزال قائمة ، وانها كانت تشتغل بالوساطة فى التجارة بين أهل الصين والأجانب .

---

(١) انظر Gibb : The Arab Conquests of Central Asia pp. 63, 67.

(٢) Gibb : Ibid p. 79.

(٣) Gibb : Ibid p. 92.

(٤) انظر المروزى Al-Marwazi (Sharaf al-Zaman Tahir) : On China, the Turks & India. ed. V. Minorsky نشره ف . مينورسكى (لندن ١٩٤٢ م) الفصل الثامن ؛ القسم ١٦

وتسجل لنا أيضا الكتابات الاباضـــية المتأخرة نقلا عن مصادر وثيقة رحلة تاجر اباضى الى الصين حوالى منتصف القرن الثـــامن الميلادى ، وكان يدعى أبا عبيدة ، ويرجع أصله الى عمان ، وقد اشترى فى الصين بعض خشب الند [١]

والمعروف أن منطقة ما وراء النهر كان يسود فيها القلاقل ، وعدم الاستقرار منذ مقتل قتيبة بن مسلم الباهلى ، وذلك بسبب الخلاف الذى ظهر بين القواد من ناحية وبين القبائل العربية من ناحية أخرى ، واشتد هذا الخلاف فى آخر عهد بنى أمية ، وقد سعى الصينيون الى تقوية نفوذهم فى بعض مدنها ، وكان طمع الصينيين فى وضع يدهم على اقليم الشاش فيما وراء النهر هو الذى دفعهم الى الاصـــطدام مع قوات العرب هناك ، اذ اشـــتبكت القوات الصـــينية بقيادة « كاوشيان كى » ضد « زياد بن صالح » الذى كان قد بعثه أبو مسلم الخراسانى لقمع ثورة شريك بن المهدى هناك ، وقد انتصر العرب على الصينيين فى «تالاس» فى سنة ١٣٤ هـ / ٧٥١ م .

وكانت هذه المعركة فاصلة للعرب ضد الصينيين ، اذ لم يشتبك الصينيون بعدها ضد العرب صراحة ، وان كان يظهر من تاريخ الصين أن الصينيين ساعدوا أحيانا بعض الأمراء الترك فى نزاعهم ضد العرب ، كذلك أدى انتصار العرب على الصينيين فى واقعة تالاس الى سيطرة المدنية العربية الاسلامية على آسيا الوسطى بعد أن كانت تتنازع تلك المنطقة المدنية الصـــينية من ناحية والمدنية العربيـــة الاسلامية من ناحية أخرى[٢] .

وقد ذكر الثعـــالبى [٣] أن الصينيين الذين وقعوا أسارى فى أيدى العرب

---

(١) انظر T. Lewicki : Les premiers commerçants Arabes en Chine فى مجلة Roczuik Orientalistyczny vol. 11 (1935) pp. 173—186.

وانظر ايضا Kuwabara (J.) : On P'u Shou-Kêng; Memoirs of the Research Department of the Tokyo Bunko, No. 2 (1928) pp. 1—79.

(٢) انظر : بدر الدين حى الصبنى : العلاقات بين العرب والصين ص ٣٥

(٣) انظر : لطائف المعـــارف (طبعـــة دى يونغ فى ليون ســـنة ١٨٦٧ م) ص ١٢٦

وانظر W. Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion (لندن ١٩٢٨ م) ص ١٩٦

علموا أهل سمرقند صناعة الورق فانتشرت هذه الصناعة فى البلاد الاسلامية الأخرى بعد ذلك .

***

وتذكر المراجع المختلفة أن ثورة قامت زمن الامبراطور الصينى « يونغ جونغ» ففر هذا الامبراطور تحت ضغط الثوار . وولى العرش ابنه «سوتسونج» وذلك فى سنة ٧٥٥م/١٣٨ هـ . وتقول بعض المراجع الصينية أن هذا الامبراطور طلب من الخليفة أبى جعفر المنصور العباسى أن يظهره على خصمه ، فلبى المنصور طلبه وأرسل اليه فرقة من الجنود العرب استطاع بوساطتها أن يسترد سلطانه وأن يستولى على عاصمته الغربية وهى « شانغ آن » وعاصمته الشرقية وهى «لويانغ» ولعل أبا جعفر المنصور لم يرسل الجند من عاصمته حينذاك ؛ وانما طلب من بعض ولاة ما وراء النهر أن يرسلوا نجدة الى امبراطور الصين ، كذلك ساعد الامبراطور الصينى حينذاك شعب الأواغرة . وبعد أن قمعت الثورة فى الصين سنة ٧٥٧ م / ١٤٠ هـ ، عاد من عاد ، وأقام من فضل الاقامة . وقد فرقهم الامبراطور فى المدن العظيمة وسمح لهم بالتزوج من بنات الصين ، ومنذ ذلك الحين ازدادت الصلات توثقا بين أسرة تانغ والأواغرة ، كما كثرت السفارات بين الصين والبلاد العربية [١] .

***

وتؤكد المصادر التاريخية أن العلاقة السياسية والدبلوماسية بين الخلفاء العباسيين والصينيين كانت أقوى وأوثق مما كانت عليه زمن الخلفاء الأمويين . وكان من أهم السفارات تلك التى كانت من قبل أبى العباس السفاح رأس الدولة العباسية ، وأبى جعفر المنصور وهارون الرشيد . وقد سجل تاريخ الصين خمس عشرة سفارة من العباسيين فى نصف قرن بين ٧٥٠ م ، ٨٠٠ م / ١٣٣ هـ ، ١٨٤ هـ . ولم تفصل أغراض هذه السفارات فيما عدا أنها جاءت الى الصين لزيارات ودية أو لتقديم الهدايا . ولعل معظم هذه السفارات كان لتحسين العلاقة

---

(١) انظر P. de Thiersant : Le Mahométisme en Chine ج ١ ص ٧٠ — ٧١ ، Th. Arnold : The Preaching of Islam ص ٢٩٥ — ٢٩٦ ، وبدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٣٦ — ٤٤

التجارية بين العرب والصين ، وقد كانت السفارات التى جاءت من قبل التجار أنفسهم أكثر من التى جاءت من قبل الخلفاء [١] .

والواقع أن تولى العباسيين الخلافة كان قوة جديدة دفعت الى الأمام التجارة البحرية الواردة الى الخليج الفارسى والصادرة عنه ، وذلك لانتقال العاصمة من دمشق الى بغداد فضلا عن اتساع التجارة زمن العباسيين اتساعا كبيرا .

ونحن نعرف أن بغداد نمت نموا عظيما وأصبحت المدينة التجارية الأولى فى الشرق ، وكان هذا من شأنه تنشيط التجارة بين موانىء الخليج الفارسى الى الشرق الأقصى . وكانت الأبلة وسيراف [٢] أهم موانى السفن البحرية ، ولكن السفن النهرية كانت تستطيع نقل السلع الى بغداد . فكان الحال كما يذكر الخليفة أبى جعفر المنصور :

« هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شىء ، يأتينا فيها كل ما فى البحر [٣] » .

والمعروف أن الخلفاء العباسيين شجعوا على مزج رعاياهم العرب والفرس وغيرهم بعضهم ببعض فى وحدة اسلامية لسانها العربية ، ولهذا نرى أن الوثائق العربية الخاصة بالتجارة البحرية مع الشرق الأقصى تذكر المسلمين والعرب أكثر مما تذكر الفرس الى حد بعيد . ونلاحظ أن آخر مرة يرد فيها ذكر الفرس Po-sse « بُوْ—سَ » فى الحوليات الصينية هى سنة ٧٥٨م/١٤١ هـ ، وفى تلك السنة يرد الى جانبهم ذكر العرب Ta-shih تاشى [٤] .

***

وقد أشار الطبرى الى بعض طرف الصين حين ذكر فتح مدينة كش من أعمال سمرقند على يد خالد بن ابراهيم والى بلخ سنة ١٣٤ هـ (٧٥١ م) فقال : « وفى

---

(١) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين : ص ١٨٥ — ١٨٩ وما ذكره من مراجع .

(٢) يقول فران فى بحثه Ferrand (g.) : L'élément Persan dans les textes nautiques فى مجلة Journal Asiatique المجلد ٢٠٤ (أبريل — يونيه ١٩٢٤) ص ٢٥٦ — ٢٥٧ انها كانت فى موضع قرية الطاهرة الآن .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ٢٣٨

(٤) انظر Old History of the Tang الفصل ٢٥٨ ب : الترجمة الانجليزية فى كتاب Hassan (H.) : a History of Persian Navigation ص ٩٧ — ٩٩

هذه السنة غزا أبوداود خالد بن ابراهيم أهل كش ، فقتل الأخريد ملكها ... وأخذ أبو داود من الأخريد وأصحابه حين قتلهم من الأوانى الصينية المنقوشة المذهبة التى لم ير مثلها ، ومن السروج الصينية ومتاع الصين كله من الديباج وغيره ، ومن طرف الصين شيئا كثيرا [١] .

وكان فى بغداد منذ نهاية القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) سوقا خاصة لبيع التحف الصينية ، وقد كتب اليعقوبى [٢] فى وصف بغداد : «وينقسم طرق الجانب الشرقى وهو عسكر المهدى خمسة أقسام ، فطريق مستقيم الى الرصافة الذى فيه قصر المهدى والمسجد الجامع ، وطريق فى السوق التى يقال لها سوق خضير وهى معدن طرائف الصين » .

وفى المصادر الصينية نص تاريخى يشير الى وجود فنانين صينيين بمدينة الكوفة فى منتصف القرن الثامن الميلادى ، فان الكاتب الصينى « توهوان » كان فى الأسر عند العرب سنة ٧٥١ م / ١٣٤ هـ ، وقد نجح فى الهرب سنة ٧٦٢م / ١٤٥ هـ ، ففر على سفينة تجارية الى كانتون ، ومنها الى موطنه سينجان فو ، وقد تحدث « توهوان » عن مدينة الكوفة فى كتاب له ، وذكر أن صناعا من بنى وطنه كانوا أسرى فيها وأنهم علموا الصناع المسلمين نسج الأقمشة الحريرية الخفيفة وصناعة التحف الذهبية والفضية فضلا عن النقش والتصوير [٣] . وقد يكون هذا الكاتب مبالغا ولكن حديثه له مغزاه على كل حال .

وقد تحدث الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ = ٨٦٩ م) فى كتابه البخلاء [٤] عن أصدقاء زاروا رجلا عنده مائدة من حجر العقيق وآنية صينية ملمعة .

وقد عثر فى أنقاض مدينة سامراء على أنواع من الفخار والخزف الصينى الذى يرجع عهده الى أسرة تانج [٥] ، وفى القسم الاسلامى من متاحف الدولة فى برلين مجموعة طيبة من هذا الخزف الصينى الذى عثرت عليه البعثة الألمانية فى

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ١٥٠

(٢) كتاب البلدان (ليدن ١٧٩٢ م) ص ٢٥٣

(٣) انظر P. Pelliot : Des Artisans Chinois à la Capitale Abbasside en 750 — 762 فى العدد ٢٦ سنة ١٩٢٩ م من مجلة Toung Pao ص ١١٠ — ١١٢

(٤) كتاب البخلاء (طبعة فان فلوتن) ص ٥٧

(٥) انظر F. Sarre : Die Keramik von Samarra

حفائر سامرا التى كانت عاصمة للعباسيين نحو خمسين عاما من القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى (٢٢١ هـ = ٨٣٦ م الى ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) [١] . وقد ذكر الأبشيهى (القرن ٩ هـ ، ١٥ م) أن يعقوب بن الليث الصفار أهدى الى المعتمد على الله (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ — ٨٩٢ م) هـدية فى بعض السنين بينها عشرون صندوقا على عشر بغال «فيهم طرائف الصين وغرائبه» [٢] .

ومن المسلمين الذين زاروا الصين رحالة عربى اسمه « سليمان » لا نكاد نعرف شيئا عن ترجمة حياته ، ولكن وصف سياحته فى الهند والصين وصل الينا ، وقد كتبه فى سنة ٢٣٧ هـ = ٨٥١ م . ولهذا الوصف ذيل وضعه فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) مؤلف من سيراف اسمه « أبو زيد حسن » ، وقد اعتمد فيه على ما سمعه من قصص الرحالة والتجار فى بحار الصين ، وقد طبعت هذه الرحلة سنة ١٨١١ م على يد المستشرق لانجلس Langlès ، ثم نشرها المستشرق رينو Reinaud مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٤٥ م ، كما أتى بها المستشرق فران Ferrand فى مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى ، والتى ترجمها الى الفرنسية وعلق عليها ونشرها فى مؤلف من مجلدين [٣] .

وفى هذه الرحلة بيانات عن علاقة المسلمين بالصين فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (التاسع والعاشر الميلادى) ، ومن هذه البيانات والأخبار أن مدينة خانفو [٤] وهى التى عرفت باسم « كانتون » ، والتى كانت مجمعا للتجار ، كان فيها رجل مسلم « يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون الى

---

(١) انظر الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر (القاهرة سنة ١٩٣٥ م) ج ١ ص ٢٤ وما بعدها ، الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٠ — ٢١

(٢) انظر كتاب المستطرف فى كل فن مستظرف ج ٢ ص ٥٤

(٣) Relation de Voyages et Textes Géographiques Arabes, Persans et Turks Relatifs à l'Extrême-Orient de VIII au XVIII siécles, Traduits, Revus et Annotés par Gabriel Ferrand (Paris 1913 — 1914)

(٤) انظر مادة « خانفو » بدائرة المعارف الاسلامية ، حزين
Huzayyin (S.A.) : Arabia and the Far East (Cairo 1942) pp. 158 — 160.

تلك النـاحية ... واذا كان فى العيـد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطـان المسلمين [١] » .

وذكر هذا الرحالة « أن أكثر السفن الصينية تحمل من سيراف ، وان المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرها الى سيراف ، فيعبى فى السفن الصينية بسيراف وذلك لكثرة الأمواج فى هذا البحر وقلة الماء فى مواضع منه ... » ثم وصف بعد ذلك المحطات المختلفة التى تقف عندما السفن فى طريقها الى الصين ، ومن الطريف أن سليمان السيرافى أول مؤلف غير صينى أشار الى الشاى ، فقد ذكر أن ملك الصين يحتفظ لنفسه بالدخل الناتج من محاجر الملح ومن نوع من العشب ، يشربه الصينيون فى الماء الساخن ويباع منه الشىء الكثير فى جميع مدنهم ويسمونه « ساخ » [٢] . ومما ذكره « سليمان » التـاجر السـيرافى فى رحلتـه أن عند الصينيين الغضار [٣] الجيد يصنعون منه أقداحا فى دقة القوارير الزجاجية مع أنها من الغضار [٤] .

وفى الذيل الذى كتبه « أبو زيد حسن » أحاديث طريفة عن علاقة المسلمين بالصين ، وبعضها يصعب تصديقه ، ومن ذلك حديث القرشى المسمى ابن وهب الذى ترك مدينـة البصرة عند ما خربها الزنج ، وقام برحلة الى الصـين نحو سنة ٢٥٦ هـ = ٨٧٠ م ، وزار بلاط ملك الصين وقال انه رأى فيه صور الرسل ومن بينها صورة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام راكبا جمل وأصحابه محدقون به ، وقد أشار « المسعودى » الى هـذه القصة فى كتابه « مروج الذهب » فى الفصل الذى عقده للحديث عن ملوك الصين ، وقد رجح المستشرق رينو Reinaud

---

(١) وفى بعض المصادر الصينية أن هذا النوع من الامتيازات الأجنبية امتد الى الجاليات الاسلامية الأخرى فى الصـين ، فكان لكل منها قاضـيها وشيوخها ومساجدها وأسواقها . انظر :

Chau Ju-Kua : Chu-fan-chï translated from Chinese and annotated by F. Hirth and W. W. Rockhill (Petersburg 1911) pp. 16—17

(٢) انظر الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى (القـاهرة ١٩٤٥ م) ص ٢٥ ، وبدر الدين حى الصينى : العـلاقات بين العرب والصين ص ٣١١

(٣) الغضار : الخزف .

(٤) راجع Voyage du marchand arabe Suleiman en Inde et en Chine suivi de remarques par Abu Zayd Hassan : Traduit par Ferrand (les Classiques de l'Orient vol. VIII) paris 1922 p. 54

أن أبا زيد حسن لقى المسعودى وتبادلا ما كانا يعرفانه عن الهند والصين والبحار الشرقية[١] .

❊❊❊

ومن أقدم الجغرافيين المسلمين الذين كتبوا عن الصين ابن خرداذبه ، وقد كان أبوه حاكما على طبرستان مدة طويلة ، ثم سافر ابن خرداذبة الى بغداد حيث كان صاحبا لديوان البريد ، وقد كتب مؤلفه المشهور « المسالك والممالك » فى سامرا بين سنتى ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م و ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م ، أى أن كتاب المسالك والممالك أقدم من كتاب سليمان التاجر السيرافى بنحو ثلاث سنوات ، وكل من الكتابين له قيمته الخاصة ، فكتاب ابن خرداذبة يتصف بالكتابة العلمية ، أما كتاب سليمان التاجر فهو مبنى على مشاهداته وتجاربه فى الصين التى سافر اليها مرارا ، والواقع أننا نجدهما متفقين فى أكثر الأشياء ومختلفين فى بعض الأمور .

وقد أشار ابن خرداذبة الى بعض ثغور الصين وما يستورد منها ثم أجمل القول عن صادرات تلك الأقاليم فكتب :

« والذى يجىء فى هـذا البحر الشرقى من الصـين ، الحرير والفرند[٢] والكيمخاو[٣] والمسك والعود والسروج والسمور[٤] والغضار .. الخ[٥] .

❊❊❊

(١) انظر ص ٧٧ وما بعدها من رحلة سليمان ، وانظر مقال الدكتور زكى محمد حسن : « السيرة فى الفن الاسلامى » عدد مايو ١٩٤٠ م من مجلة المقتطف ، الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٢ Blochet (E.) : Musulman Painting (London 1929) p. 19.

(٢) الفرند : الحرير الملون تصنع منه الثياب .

(٣) الكيمخاو : من اللغة الصينية « كمخا » بكسر الكاف ومعناها الديباج أو الحرير الصينى المنسوج بخيوط الذهب . وقد استخدم الايرانيون هـذه الكلمة ايضا فكانوا يقولون كمخا أو كمخاب بفتح الكاف (انظر بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٣١٠) .

(٤) السمور على وزن تنور دابة تتخذ من جلدها فراء ثمينة ، أو هى الفراء نفسها ، واسم هذه الدابة بالفرنسية martre وبالانجليزية sable وبالألمانية Zopel واسمها العلمى martes zibellina أو mustella zibellina (انظر هامش رقم ٤ من كتاب الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٠)

(٥) ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك (طبعة دى غوية) ص ٦٩ — ٧٠

وفى عصر بنى سامان (٢٦١ — ٣٨٩ هـ = ٨٧٤ — ٩٩٩ م) ببلاد ما وراء النهر كانت التجارة واسعة مع بلاد الصين ، وكان الاقبال على منتجاتها شديدا[١] . ونعرف أن الأمير السامانى نصر بن أحمد (٣٠١ — ٣٣١هـ = ٩١٣ — ٩٤٢م)أمر الشاعر الايرانى رودكى بنظم كليلة ودمنة ، ثم طلب بعد ذلك الى فنانين صينيين أن يوضحوا مخطوطات الترجمة المنظومة بالصور ليطرب الناس بقراءتها[٢]. والظاهر أن أولئك الفنانين الصينيين كانوا ملحقين ببعثة سياسية صينية جاءت لزيارة أمير بخارى[٣] . والمعروف أن بلاد ما وراء النهر وبلاد التركستان كانت فى عصر الدولة السامانيـة أزهر الأقاليم الاسلامية ، فكان بلاط أمرائها مجمع العلماء والأدباء والفنانين ، وذاع صيت بخارى وسمرقند فى أنحاء العالم الاسلامى ولا ريب فى أن بعض الصناع والفنانين من أهل الصين كان يقيم فى تلك الأقاليم ويكسب عيشه بالعمل فيها ، وقد جاء ما يؤيد ذلك فى يوميات راهب صـينى سافر الى ايران بطريق آسـيا الوسطى بين عامى ١٢٢١ و ١٢٢٤ بعد الميـلاد (٦١٨ و ٦٢١ هجرية) اذ كتب عند الكلام على سمرقند « ان الصناع الصينيين كانوا يعيشون هناك فى كل مكان »[٤] .

وكتب ياقوت فى معجم البلدان (مادة صـين) أن ملك الصـين أرسـل سنة ٣٣١ هـ (٩٤٣ م) يخطب ود نصر بن أحمد السامانى ويطلب مصاهرته ، فقبل نصر أن يزوج ابنه من ابنة ملك الصين ففتح هـذا أمام التجار المسلمين الطريق الى الصين[٥] .

ولا ريب فى أن بنى سامان كانت صلتهم كبيرة ببلاط ملوك الصين مما سهل عليهم استخدام الفنانين من أهل الصين[٦] . وفضلا عن ذلك فان الطريق البرى

---

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصـين وفنون الاسـلام ص ١٤ ، بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٢٥

(٢) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٤

(٣) انظر Blochet (E.) : Musulman Painting p. 45

(٤) انظر Bretschneider : Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources (London 1888) vol. I. p. 78

(٥) انظر : ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٤٠٨ — ٤٠٩

(٦) انظر Blochet (E.) : Natices sur les manuscrits persans et arabes de la collection Marteau. Notices et Extraits des manuscrits de la Bibliothèque Nationale XII pp. 219—220

بين البلدين كان مطروقا [١] ، كما كانت تجارتهم مع تلك البلاد زاهرة [٢]. والواقع أن حكم الدولة السامانية وازدهار الأمن فى بلادهم كانا أكبر مشجع للتجار ، وحسبنا أن معظم النقود العربية التى كشفت فى شمال أوربا هى من النقود السامانية .

***

ومما ذكره أبو زيد حسن ، فى الذيل الذى وضعه لرحلة « سليمان التاجر السيرافى » أن السفن القادمة من سيراف متجهة الى البحر الأحمر كانت اذا وصلت جدة أقامت بها، ونقل ما فيها من السلع الى مراكب خاصة تحمله الى مصر وتسمى مراكب القلزم ، وذلك لأن المراكب الأخرى كانت لا تستطيع الملاحة فى شمالى البحر الأحمر ، وأشار أبو زيد الى قلة الاتصال بالصين بعد رحلات سليمان ، وذلك بسبب قيام ثورات فيها [٣].

ويظهر أن المواصلات البحرية لم تكن متصلة تماما بين الصين والشرق الأدنى فى عصر المسعودى (القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى) فان السفن من الجانبين لم تعد تبحر الا حتى مدينة تسمى « كلة »[٤] فى منتصف الطريق بين البلدين ، وقد أشار المسعودى [٥] الى ذلك فى حديثه عن رجل من التجار من أهل مدينة سمر قند « خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى الى العراق ،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٩٦

(٢) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion pp. 236—237

(٣) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٢٥ ، الصين وفنون الاسلام ص ١٣

(٤) لعل « كلة » فى ولاية كيدا Kedah بالملايو الآن ، وقد أيد هذا الرأى ناشر كتاب بُزُرك ص ٢٢٥ — ٢٦٤ — انظر : بزرك بن شهريار الناخداه الرام هرمزى : كتاب عجائب الهند بره وبحره وجزايره : نشر النص ب.ا. فان ديرليت P. A. van der Lith وترجمة الى الفرنسية ل . مارسيل دفيك . L. Marcel Devic (ليدن ١٨٨٣ — ١٨٨٦ م) ؛ ويرى Ferrand فى بحثه L'élément Persan dans les textes nautiques Arabes فى مجلة Journal Asiatique المجلد ٢٠٤ (أبريل—يونيه ١٩٢٤م) ص ٢٥٤، وفى دائرة المعارف الاسلامية مادة « كلة » انها Kra « كرا » فى سيام (تايلاند الحالية) على الساحل الغربى لشبه جزيرة الملايو . وفى مادة Chine دائرة المعارف الاسلامية أن « كلة » فى مروج الذهب للمسعودى ليست « كلة بار » فى ملقا ، ولكن ميناء جال Galle فى الطرف الجنوبى لسيلان .

(٥) مروج الذهب ج ١ ص ١٩

فحمل من جهازه وانحدر الى البصرة ، وركب البحر حتى أتى الى بلاد عمان ، وركب الى بلاد « كلة » وهى النصف من طريق الصين أو نحو ذلك واليها تنتهى مراكب الاسلام من السيرافيين والعمانيين فى هذا الوقت ، فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين فى مراكبهم ، وقد كانوا فى بدء الزمان بخلاف ذلك ، وذلك أن مراكب الصين كانت تأتى بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة ، فلذلك كانت المراكب تختلف فى المواضع التى ذكرنا الى ما هناك ، ولما عدم العدل وفسدت النيات ، وكان من أمر الصين ما وصفنا التقى الفريقان جميعا فى هذا النصف ، ثم ركب هذا التاجر من مدينة « كلة » فى مراكب الصينيين الى مدينة « خانفو » .

كذلك أشار المسعودى [١] الى بعض أقوام السند يقال لهم « المَيْد » ، وتحدث عن قرصنتهم فقال : « ولهم بوارج فى البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى أرض الهند والصين وجدة والقلزم وغيرها كالشوانى فى بحر الروم » .

وقد ترك لنا الكاتب الصينى « شاويوكوا » Chau Ju Kua بعض البيانات الثمينة عن التجارة بين الصين والشرق الاسلامى فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، وقد كان هذا الكاتب مفتشا للتجارة الخارجية فى اقليم فوكين بالصين ، وكتب فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى مؤلفا عن الأمم الأجنبية وتجارتها مع بلاده . وعنوان هذا الكتاب Chu-fan-chï ، وقد ترجمه الى الانجليزية الأستاذان F. Hirth هرث و W.W. Rockhill روكهل ، ونشراه سنة ١٩١١ م بمدينة سنت بطرسبرج مع شروح وتعليقات من مراجع أخرى ، وصدراه بمقدمة فيها موجز عن تاريخ التجارة بين الشرقين الأقصى والأدنى ، ذكرا فيه أن التجارة البحرية فى العصور القديمة والعصور الوسطى بين مصر وايران والشام من ناحية ، والشرق الأقصى والهند من ناحية أخرى ، كان معظمها فى أيدى العرب ، وكانوا يؤسسون منذ العصور القديمة محطات فى أهم الموانىء التى يمرون بها .

---

(١) التنبيه والاشراف (طبع عبد الله اسماعيل الصاوى بالقاهرة سنة ١٩٣٨ م) ص ٤٩

وقد كتب ياقوت الحمـوى (توفى سـنة ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) فى مادة « الصين » « ... وتحت واسط بليدة مشهورة يقال لها الصينية ، ويقال لها أيضا صينية الحوانيت .. ينسب اليها صينى .. منها الحسن بن أحمد بن ماهان أبو على الصينى حدث عن أحمد بن عبيد الواسطى يروى عنه أبو بكر الخطيب وقال كان قاضى بلدته وخطيبها .... وأما ابراهيم بن اسحق الصينى فهو كوفى كان يتجر الى الصين فنسب اليها .. وقال أبو سعد وممن نسب الى الصين أبو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد الأنصارى الأندلسى كان يكتب لنفسه الصينى ، لأنه كان قد سافر من المغرب الى الصين ، وكان فقيها صالحا كثير المال .. ومات سنة ٥٤١ .. ولهم صينى آخر لا يدرى الى أى شىء هو منسوب وهو حميد بن محمد بن على أبو عمرو الشيبانى يعرف بحميد الصينى .. » [١] .

والمعروف أن أمير بغداد ، حين لقب بمالك الدولة فى سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣١ م) بعث للخليفة ألطافا كثيرة ، كان منها ثلثمائة مبخر صينى . كذلك كان بين الكنوز الفنية التى جمعها خلفاء الفاطميين ووزراؤهم مقادير كبيرة من الخزف الصينى [٢] .

***

ونعرف من المراجع المختلفة أن بلاد الصين دخلت منذ منتصف القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) فى عهد مملوء بالحوادث والاضطرابات التى قضت على أسرة تانج فى سنة ٩٠٦ م / ٢٩٤ هـ . وبعد ذلك تعاقبت على حكم الصين خمس أسر حاكمة قصيرة الحكم تعرف باسم « ووتاى » من ٩٠٧ — ٩٥٩ م / ٢٩٥ هـ — ٣٤٨ هـ .

ولم تترك هذه الأسر أى أثر فى حياة الصين الداخلية بل أصبحت البلاد مرة أخرى يسودها الانحلال والفوضى الى أن غلبت على الحكم أسرة جديدة هى أسرة سونج فى ٩٦٠ م / ٣٤٩ هـ ، أعادت الأمن والطمأنينة الى البلاد . والواقع أن فترة الاضطرابات والانقلابات فى تاريخ الصين والتى أشار اليها كما مر بنا أبو زيد السيرافى ، والمسعودى قد قطعت صلة العرب بالصين نحو مائة سنة .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٤٠٨

(٢) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٢ وما ذكره من مراجع .

ولهذا لا نجد فى كتب الصين القديمة أى ذكر عن العرب الى الصين أو فى الصين بين سنتى ٨٥٠ و ٩٥٠ م / ٢٣٦ و ٣٣٩ هـ .

لكن مع ظهور أسرة سونج « سونغ » استؤنفت العلاقات السابقة بين بلاد الصين وبين العرب والمسلمين ، وأخذ تاريخ الصين يدون للمرة الثانية هذه العلاقات ، حتى اننا نرى ذكرا لخمس وعشرين سفارة قدمت من العرب بين سنتى ٩٦٠ م و ١١٤٠ م / ٣٤٩ و ٥٣٥ هـ ، وقد اختارت أغلب هذه السفارات طريق البحر كما كان أغلبها لتحسين العلاقات التجارية بين الصين والعرب ، وكانت السفارات التى من قبل التجار أكثر من التى من قبل الخلفاء[١] .

وكان التجار المسلمون يشتغلون ببيع العطور والبضائع الواردة وبتصدير منتجات الصين ، وأثرى بعضهم ثراء كبيرا . فتذكر الكتب الصينية أن أهم السفارات هو ما ورد فى سنة ٩٩٤ م و ٩٩٥ م (٣٨٤ و ٣٨٥ هـ) ، أما تفاصيل هاتين السفارتين فى الكتب الصينية فانها تعطينا صورة صادقة عن الثروة الحقيقية التى اكتسبها بعض التجار العرب فى أسواق الصين فى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى . ولم تكن هاتان السفارتان من خليفة بغداد وانما من تاجر عربى استوطن فى كانتون زمنا طويلا ، وكانت له مراكب تجارية ، وقد عرف اسمه فى الكتب الصينية باسم « بوهيم » ولعله ابراهيم بن اسحق ذلك التاجر الكبير الذى تقدمت الاشارة اليه ، والذى حدثنا عنه ياقوت فى معجم البلدان وذكر أنه كان يعرف بالصينى . وتذكر الكتب الصينية أنه لطول اقامته بالصين تعلم اللغة الصينية ، وأجاد الكتابة بها كأحد أبنائها العالمين بأسرار ودقائق اللغة[٢] .

وقد أنشىء فى عهد أسرة « سونج » مسجد « تشينغ كينغ » أى « الطاهر » فى ميناء « تشون شو » وذلك فى سنة ١٠٠٩ م / ٤٠٠ هـ ، ولا يزال هذا الجامع موجودا الى الآن[٣] . ويذكر المؤرخون الصينيون أن المسلمين فى عهد أسرة

---

(١) انظر محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٩ ، بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٨٨ — ١٩٨

(٢) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٩١ — ١٩٦

(٣) انظر : محمد تواضع : الصين والاسلام ص ٩

سونج كانوا متفوقين اقتصاديا ، وكان لهم موظفون هامون مثل مدير الجمرك المسلم المسمى « بوشوقينغ » [١] .

***

ولم ينقض نصف القرن الثانى عشر الميلادى (منتصف القرن السادس الهجرى) حتى أصبحت أسرة سونج لا تحكم الا الصين الجنوبية ، وكانت عاصمتها « هانج تشو » ، أما الصين الشمالية فقد غلب عليها قبائل من التتار الشرقيين عرفوا باسم جين ، كونوا مملكة « كين » المعروفة فى تاريخ الصين قبل أيام المغول ، وقد اشتهرت هذه المملكة فى الكتب العربية باسم « ما صين » وفى الكتب الفارسية باسم «ماچين» ، وهذه المملكة هى التى اتصلت بالدولة السامانية فى أواسط آسيا ، وكانت عاصمتها بكين ثم « كاى فونج » [٢] .

وفى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ظهر المغول أو التتار على مسرح السياسة فى الشرق ، وقد كتب عنهم المؤرخون الصين فى حوادث القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) ولكن لم يستفحل أمرهم ويخرجوا الى أرض الاسلام الا فى القرن السابع الهجرى (١٣ م) .

وفى عهد چنكيز خان استطاع المغول أن ينتزعوا بعض أجزاء من أقاليم الصين الشمالية ، أما بقية الأجزاء فى هذه المنطقة فكانت لا تزال تحت حكم أسرة « كين » ، وكان لسقوط بكين على يد چنكيز خان عام ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) ، دوى عظيم فى الممالك الاسلامية فزادت هيبته فى نفوس الجميع ، لكن چنكيزخان عاد الى منغوليا فى سنة ٦١٣ هـ ، وبعد رحيله استعادت أسرة كين كثيرا من أملاكها المفقودة ، واستمرت امبراطوريتهم قائمة الى أن قضى عليها نهائيا فى عهد من أسرة سونج لولا وفاته فى سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) [٣] .

وكان الاويغوريون الذين يسكنون شمال شرقى تركستان الحالية قد دخلوا أوگتاى بن چنگيزخان . وكاد يتم خان المغول قضائه على حكام الصين الجنوبية تحت سلطة چنكيز خان منذ سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م . والاويغوريون كانوا أكثر

---

(١) المرجع السابق ص ١٠

(٢) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ١٩٨ ـ ١٩٩ محمد تواضع : الصين والاسلام ص ١٠

(٣) انظر : الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ (دار القلم ـ القاهرة ١٩٦٠) ص ٢٣ و ١١٩ ـ ١٢١

الأقوام التركية تمدنا ، كما كانوا واسطة الارتباط بين الايرانيين والصين والهنود. وفى سنة ٦١٥ هـ / تمت سيطرة المغول على جميع القبائل التركية التى كانت تخضع للقراخطائيين ، وكان الأتراك القراخطائيون يكونون دولة كبيرة قبيل الغزو المغولى تقع ما بين مملكة الخوارزميين فى الغرب ومساكن المغول فى الشرق ، وكان شاطىء سيحون يكون حدا فاصلا بين ممالك القراخطائيين وأقاليم الدولة الخوارزمية ، وبذلك أصبح المغول يجاورون أملاك الخوارزميين وهم من أصل تركى ويدينون بالاسلام ، وكانوا ذوى ثقافة عربية وفارسية ، أما دولتهم فكانت تشمل كل منطقة ما وراء النهر وايران تقريبا [١] .

وكان چنكيز خان قد قضى تقريبا على الدولة الخوارزمية قبل سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) أما سقوط تلك الدولة فقد تم فى عهد اوكتاى ابن چنكيز خان فى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) . وعند ما ولى منكو حفيد چنكيز خان حكم المغول فى سنة ٦٤٨ / ١٢٥٠ م صمم على فتح البلاد الم لم يتيسر فتحها من قبل ، فعهد الى أخيه هولاكو بالقضاء على طائفة الاسماعيلية فى ايران واخضاع الخليفة العباسى ، كما عهد الى أخيه قوبيلاى بفتح اقليم الصين الجنوبية ، وقد بدأ قوبيلاى بانجاز هذه المهمة فى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) .

ولما أصبح خانا للمغول سنة ٦٥٨ هـ اتخذ مدينة بكين عاصمة له ، وتم له الاستيلاء على بلاد الصين كلها فى سنة ٦٧٨ هـ (١٢٨٨ م) وأسس هناك دولة « يوان » التى حكمت مدة تسعين سنة [٢] .

أما هولاكو فانه نجح فى مهمته واستطاع أن يقضى على الاسماعيلية فى ايران ، كما توج فتوحات المغول بالاستيلاء على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وأسس فى ايران أسرة الايلخان التى ظلت تحكمها الى سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٦ م) .

وهكذا نرى أن المغول أو التتار (التتر) كانت لهم بين القرنين السابع والثامن بعد الهجرة (الثالث عشر والرابع عشر بعد الميلاد) دولة واسعة الأطراف

---

(١) الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٥ — ٦ ، ٢٠ — ٢١ ، ٢٤ — ٢٥

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٣٤ — ١٣٥ ، محمد تواضع ، الصين والاسلام ص ١٠ ، وبدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٠١ — ٢٠٢

فى آسيا ، فكانت الصين وايران خاضعتين لحكم جملة أعضاء من بيت مغولى واحد . ومع أن أمراء الأسرة الايلخانية وأتباعهم تهذبوا بالحضارة الايرانية ثم اعتنقوا الاسلام الا أنهم لم يقطعوا أسباب العلاقة بينهم وبين المغول فى الصين . على أن صلة أسرة الايلخان فى ايران بأسرة يوان فى الصين لم يكن قوامها رابطة الجنس والقرابة فحسب ، بل زادت التجارة بين البلدين فى عصر الأسرتين ، كما عظم نفوذ الصين الثقافى فى ايران بفضل الموظفين والتراجمة والفنانين والصناع من الصينيين ، الذين قدموا من الشرق الأقصى وآسيا الوسطى ، وعملوا مع المغول فى ملكهم الجديد [١] .

وقد جاء فى كتاب جامع التواريخ للوزير رشيد الدين ، أن كثيرا من المصورين الصينيين قدموا الى ايران فى عهد هولاكو وغازان والجايتو ، كما انتشرت فى دولتهم الكتب الموضحة بالصور الصينية . والمعروف أن هولاكو وخلفاءه كانوا يشملون رجال الفن برعايتهم ، بل كانوا حين يخربون المدن فى حروبهم يعنون بانقاذ الفنانين والصناع ، وكان بعض أولئك الصناع يفلح فى العودة الى وطنه بعد العمل مع الصينيين والتأثر بأساليبهم الفنية [٢] .

والمعروف أن جموعا من المسلمين هاجروا الى الامبراطورية الصينية بعد غارات المغول ، وكان هؤلاء المسلمون مختلفى الجنس بين عرب وايرانيين وترك ، كما كان منهم التجار والصناع والفنانون والجند والفلاحون . وقد استقر عدد كبير منهم فى الصين وأصبحوا جالية اسلامية كبيرة امتازت بنشاطها واندمجت فى أهل البلاد وتقلد بعض أفرادها الوظائف السامية ولا سيما فى عصر قوبيلاى خان . وقد لاحظ وجودهم ماركو پولو الذى عاش فى الصين بين عامى ١٢٧٥ و ١٢٩٢ م (٦٧٤ — ٦٩٣ هـ) والذى كان مقربا الى قوبيلاى خان . وقد أتى ماركو پولو فى وصف رحلته بكثير من البيانات عن المسلمين فى الصين وعن العلاقة بين الصين والشرق الأدنى [٣] .

---

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٥ — ١٦

(٢) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٢

(٣) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٦ وما ذكره من مراجع .

وقد زار الرحالة المغربى ابن بطوطة عدة مدن ساحلية بالصين فى منتصف القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وتحدث عن حسن لقاء المسلمين فيها ، كما ذكر أن « فى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون » [١] .

***

وقد سقطت أسرة ايلخان المغولية سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٦ م) فى ايران ، ولم تقم فى ايران دولة كبيرة على أثر سقوط الأسرة الايلخانية مباشرة ، بل خلف هذه الأسرة عدة دويلات حتى جاء الفاتح التترى الجديد تيمورلنك ، الذى اتخذ سمرقند عاصمة لملكه وأسس دولة ظلت تحكم ايران من سنة ٧٧١ هـ (١٣٦٩ م) الى سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) .

كذلك سقطت أسرة «يوان» المغولية فى الصين على أثر ثورة وطنية ، وقامت أسرة حاكمة فى الصين هى أسرة منج (منغ) التى حكمت الصين بين عامى ٧٧٠ و ١٠٥٤ هـ (١٣٦٨ — ١٦٤٣ م) وقد قامت العلاقات الودية بين أسرة منج وأسرة تيمور بعد نجاحهما فى تقويض نفوذ المغول فنمت العلاقة بين الصين وايران فى عصر تيمور وخلفائه وتبودلت البعثات بين البلدين فى عصر تيمور وابنه « شاه رخ » فأرسل تيمور ثلاث بعثات الى امبراطور الصين ، واستقبل شاه رخ ثلاث بعثات صينية فى بلاطه [٢] . وقد استقدم تيمور من الصين نساجين كان لهم نصيب وافر من ازدهار صناعة النسج فى ايران ، كما أن حفيده أولوغ بك (٨٥٠ — ٨٥٣ هـ = ١٤٤٧ — ١٤٤٩ م) استدعى بعض المهندسين والصناع من تلك البلاد ليشيدوا له قبة من القاشانى فى بلاد ما وراء النهر ، بل الظاهر أنه أتى بالقاشانى من بلاد الصين نفسها [٣] .

والواقع أن علاقات أسرة منج بالدول الاسلامية قد اتسعت اتساعا أكبر من ذى قبل ، ذلك لأن علاقات أسرة تانج وأسرة كين وأسرة سونج كانت مقصورة

---

(١) انظر : رحلة ابن بطوطة (الطبعة الأوروبية) ج ٤ ص ٢٥٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ وانظر الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٦

(٢) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٦ — ١٧

(٣) انظر : G. Migeon : Manuel d'art Musulman (الطبعة الثانية) ج ١ ص ١٥٦

على خلفـاء المدينة ودمشق وبغـداد ، وعلى أمراء العرب فيما وراء النهر وفى خراسان ، كذلك كانت علاقات « يوان » مقصورة على ملوك المغول فى ايران وأواسط آسيا ، أما علاقات منغ فقد شملت كافة الممالك والدل الاسلامية وكان من بين الدول التى اتصلت بها مصر وعدة أمارات بشرق أفريقية [١].

ويبدو أن المسلمين فى الصين لم يندمجوا فى أهل البلاد قبل عهد أسرة منج أى قبل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، اذ كانوا قبل سقوط أسرة « يوان » المغولية يحسبون جالية أجنبية ، بينما أصبحوا فى عصر منج (٧٧٠ — ١٠٥٤ هـ = ١٣٦٨ — ١٦٤٣ م) أقرب الى الصينيين أنفسهم ، ولا سيما أن عددهم لم يزد بقدوم لاجئين جدد ، وضعف اتصالهم ببنى دينهم خارج الصين ، فاختلطوا بأهل البلاد الصينيين واتخذوا عاداتهم وملابسهم ، ووصل بعضهم الى أسمى المناصب بين موظفى الدولة ، وشملهم ملوك الصين برعايتهم ، وسمحوا لهم بتشييد المساجد العديدة فى البلاد ، والواقع أن عهد أسرة منج هو عصر ازدهار الاسلام فى الصين ، وقد ظهر أثر هـذا الازدهار فى ناحية العلم والفن وفى الأمور السياسـية والخارجية ، وظهر الوزراء المسلمـون والقواد المسلمون . كذلك أبحر قائد الأساطيل الصينية المسلم « جينغ خو » سبع مرات الى المحيطين الهادى والهندى حتى وصل الى سواحل أفريقية الشرقية [٢] .

ولم تكن العلاقة بين الصين وايران فى عصر من العصور أوثق منها فى عصر شاه رخ (٨٠٧ — ٨٥٠ هـ = ١٤٠٤ — ١٤٤٧ م) .

وكان ابنه بايسنقر (الذى توفى قبله بأربع عشرة سنة) من أكبر رعاة فن التصوير فى ايران ، فضم المصـور غياث الدين الى البعثة التى أرسلها والده شاه رخ الى امبراطور الصـين نحو سـنة ٨٢٣ هـ (١٤٢٠ م) والتى عادت سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) ، وقد أمر بايسنقر المصور المذكور أن يكتب وصفا لرحلته وما يشاهده ففعل المصور ذلك ، ووصل الينا ما كتبه غياث الدين بوساطة

---

(١) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٠٩ ، ٢٣٠ — ٢٤١

(٢) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٧ ، محمد تواضع : الصين والاسلام ص ١١ ، وبدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٠٩

الكاتب كمال الدين عبد الرزاق المتوفى فى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، والذى أتى فى كتابه « مطلع السعدين » على خلاصة ما كتبه غياث الدين . وقد ترجم هذا الكتاب الى الفرنسية على يد المستشرق كترمير Quatremère . وقد قيل ان شاه رخ أرسل مع بعض سفراء الصين ردا على امبراطورهم يحييه فيه ويشرح له مزايا الاسلام ويدعوه الى اعتناقه [١] .

والمعروف أن الديانة البوذية لا تزال سائدة فى الصين ، أما ديانة المانوية فقد تسربت الى الصين عند فتح العرب لبلاد فارس وفرار يزدجرد اليها الا أن هذه الديانة لم تتغلغل تغلغلا كبيرا فى الصين وليس لها وجود الآن . وأما عبادة الملوك والسجود لهم فقد ظلت متبعة فى الصين الى آخر عهد أسرة مانشو (١٦٤٤ — ١٩١١ م) ثم قضى الانقلاب السياسى فى سنة ١٩١١ م على هذه العادة [٢] .

***

وقد تحدث الغزولى [٣] (المتوفى سنة ٨١٥ هـ — ١٤١٢ م) عن البلور وأنواعه وخواصه وذكر أن منه ما يؤتى به من بلاد الصين .

وقد تحدث الغزولى (المتوفى سنة ٨١٥ هـ — ١٤١٢ م) عن البلور وأنواعه وخواصه وذكر أن منه ما يؤتى به من بلاد الصين .

ومما عثر عليه المنقبون عن الآثار فى أطلال مدينة الفسطاط ، أولى العواصم الاسلامية فى مصر ، قطع كثيرة من الخزف الصينى ، وأكبر الظن أن ورود هذا الخزف الى وادى النيل يرجع الى عصر أحمد ابن طولون ، الذى عرف طرائف الصين فى سامرا . ولا ريب فى أنه ظل يرد الى مصر حتى عصر المماليك ، وحسبنا أن الأمير بكتمر الساقى — الذى تزوجت ابنته أحد أبناء السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون — كان بين كنوزه الفنية مقدار وافر من خزف الصين [٤] .

---

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٧ — ١٨ وما أشار اليه من مراجع .

(٢) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٩٨ — ٩٩

(٣) مطالع البدور فى منازل السرور (مطبعة الوطن سنة ١٣٠٠ هـ) ج ٢ ص ١٥٨

(٤) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٣

وقد كتب ابن اياس (المتوفى سنة ٩٣٠ هـ — ١٥٢٤ م) فى مؤلفه « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » أن مدينة لوقين[١] كانت تصنع فيها المنسوجات المتعددة الألوان والأوانى الخزفية الصينية التى تصدر الى أنحاء العالم المختلفة[٢] .

ومما كتبه المقريزى ، فى كلامه عن سوق الكفتيين ، أى الذين يشتغلون بتطعيم المعادن (أو تكفيتها) بالذهب والفضة ، أن « العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب أو أماثل التجار » كانت تحمل الى زوجها جهازا ، منه مقدار من الخزف الصينى ومقدار من آنية أو أدوات من الورق سماها « كداهى» وقال عنها « وهى آلات من ورق مدهون تحمل من الصين ، أدركنا منها فى الدور شيئا كثيرا ، وقد عدم هذا الصنف من مصر الا شيئا يسيرا »[٣] .

وقد أشار أمير البحر التركى سيدى على چلبى[٤] فى كتابه «مرآة الممالك» الى أن أبدع أنواع الخزف كان مصدرها مدينتين من مدن الصين .

***

وقد ظل المسلمون فى الصين ينعمون برعاية الحكومة حتى قامت قبائل « منشو » التترية وهم من منشوريا الجنوبية فأسقطوا أسرة منج وأقاموا أسرة « تاتسينج » المنشورية (١٦٤٤ — ١٩١١ م / ١٠٥٤ هـ — ١٣٢٩ هـ) التى قامت فى عهدها الثورات الكثيرة وخاصة ثورات المسلمين الخمسة الكبيرة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى ، ثم قامت أخيرا الثورة العامة برياسة الدكتور « سون يات سين » وأنشئت الجمهورية الصينية سنة ١٩١٢ م التى

---

(١) لوقين هى « هانوى » الحالية ويحتمل أن تكون « لنج بين » على مقربة من هانوى الحالية .

(٢) راجع G. Ferrand : Relation de voyages et textes géographiques p. 481

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ (طبعة بولاق) ص ١٠٥

(٤) كان أمير البحر على الأسطول الذى أرسله السلطان سليمان العثمانى لطاردة البرتغاليين سنة ٩٦٢ هـ (١٥٥٣ م) وقد دمرت العواصف هذا الأسطول ونزل الأميرال الى البر فى الهند . وكان شاعرا واديبا فعكف على تدوين البيانات عن مشاهداته ثم عاد الى تركيا بطريق البحر ، فنشر هذه البيانات فى كتاب أسماه « مرآة الممالك » ترجم الى الألمانية ثم الى الفرنسية ونشر فى المجلة الاسيوية سنة ١٨٢٠ ، ونقل بعد ذلك الى الانجليزية على ڤامبرى

A. Vambéry : The Travels and Adventures of the Turkish Admiral Sidi Ali Reis in India, Afghanistan, Central Asia and Persia during the year 1553 (London 1899)

قررت أنها مكونة من الشعوب الخمسة وهم الخانيون « الصينيون الأصليون » والمنشوريون والمنغوليون والمسلمون والتبتيون [١] .

***

والمعروف أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح قضى على احتكار المسلمين التجارة مع الشرق الأقصى ، اذ أفلح البرتغاليون فى القضاء على السيادة البحرية التى كانت للمسلمين فى المحيط ، ثم قبض الهولنديون ومن بعدهم الانجليز على زمام التجارة مع البحار الشرقية ، على أن الجزء الشرقى من العالم الاسلامى ظل على اتصال بالصين فى القرنين العاشر والحادى عشر بعد الهجرة (السادس عشر والسابع عشر بعد الميلاد) ، وقد أثر هذا الاتصال على المنتجات الفنية الايرانية فى عصر الدولة الصفوية حتى غدت أصفهان مسرحا للغرام بكل ما هو صينى [٢] . لكن هذه الفنون بدأت فى الاضمحلال منذ القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) فضلا عن أنها فقدت صلتها بفنون الشرق الأقصى ، وبمت وجهها شطر أوربا [٣] .

والمعروف أن الشاه عباس الصفوى أحضر كثيرا من الخزفيين الصينيين مع أسراتهم الى مملكته لينشروا صناعة الخزف فى ايران ، ولينهضوا بتلك الصناعة حتى يمكن اصدار الخزف والصينى الى أوربا ، وقد استقر هؤلاء الفنانون فى مدينة اصفهان ، كما قدم الى شتى المدن الصناعية الايرانية خزفيون من الصين يعرضون خدماتهم على أصحاب المصانع الفنيـة منها ويساهمون فى النهضـة بصناعة الخزف الايرانى ، أما تجار التحف الصينية فكانوا ينزلون مدينة أردبيل فى العصر الصفوى ، وقد روى بعض الرحالة أن تاجرين صينيين كان لهما حانوت لبيع الخزف الصينى بمدينة أردبيل فى بداية القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) [٤] .

***

---

(١) انظر : محمد تواضع : الصين والاسلام ص ١٢ — ١٤

(٢) انظر : E. Blochet : Musulman Painting p. 62

(٣) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ١٨

(٤) المرجع السابق ص ٢٤ وما ذكره من مراجع .

والواضح أن آسيا الوسطى كانت واسطة فى نقل كثير من الأساليب الفنية الصينية الى ايران . وكان لأتباع مانى فضل يذكر فى هذا الميدان . والمعروف أن مانى بشر بمذهب دينى جديد فى ايران فى القرن الثالث الميلادى وكان مصورا ماهرا ، كما كان للتصوير عنده وعند أتباعه شأن كبير فى توضيح كتبهم الدينية . وتشهد المراجع التاريخية بأن أصحاب مذهب مانى كانت لديهم مخطوطات مصورة فاخرة ومحفوظة فى جلود فنية ثمينة . ولكن المعروف أن الأكاسرة الساسانيين ، ثم الخلفاء المسلمين كانوا يضطهدونهم ، وأنهم فروا من اضطهاد الخلافة فى القرن الثامن الميلادى والثانى الهجرى ، واستقروا فى اقليم تركستان وغيره من أقاليم آسيا الوسطى . وقد قضى هذا الاضطهاد على مخلفاتهم الثمينة ، حتى أننا لم نكن نعرف عنها شيئا ماديا الى سنة ١٩٠٤ حين كشف الأستاذان فون لوكوك Von le Coq وجرينفيدل Grunwedel بعض صور مانوية فى أطلال مدينة من أعمال « طرفان » فى بلاد التركستان الشرقية .

وكانت طرفان بين عامى ١٣٤ و ٢٢٥ بعد الهجرة (٧٦٠ — ٨٤٠ م) عاصمة لدولة الأويغور التركية الجنس والمانوية المذهب حينذاك . ويدل أسلوب هذه الصور على العلاقة الوثيقة بين الفنون التى ازدهرت فى آسيا الوسطى والفنون الصينية نفسها ، مما يحملنا على القول بأن اتباع المذهب المانوى اشتركوا فى نقل الأساليب الفنية الصينية الى شرق العالم الاسلامى[١] .

ولا يفوتنا أن نذكر أن المسلمين كانوا يستوردون من الصين أنواع الورق الصينى الفاخر مما استعملوه فى بعض مخطوطاتهم الثمينة[٢] .

وقد أخذ العرب هذه الصناعة من أسرى الصينيين فى سمرقند بعد موقعة تالاس فى ٧٥١ م . ونلاحظ أن كلمة كاغد التى استعملها الكتاب والمؤرخون

---

(١) انظر : P. Pelliot : La Haute Asie pp. 12, 13, 17, 18, Albert Grunwedel Altbuddhistisch Kunststœtten, Berlin 1812, Albert von le Coq : Chotscho, Kœnigliche Preussische Turfan-Expedition (Berlin 1913). ، الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٥ — ٢٦ وما ذكره من مراجع .

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٥

العرب هى كلمة صينية الأصل أخذها عنهم الايرانيون ثم أخذها العرب من الايرانيين ، وأصل معناها الورق الذى يصنع من قشر شجر التوت [١] .

ومهما يكن من الأمر فان النصوص الأدبية والتاريخية الاسلامية تشهد بأن المسلمين كانوا يعترفون لرجال الفن فى الصين بالأسبقية فى ميدان الفنون كما كانوا يعجبون بالتحف الصينية أشد اعجاب فلا عجب اذ ظهر تأثير الأساليب الفنية الصينية فى الفنون الاسلامية .

والحق أن كتاب العرب وشعراء الفرس وكتابهم كانوا يعجبون منذ فجر الاسلام بمهارة الصينيين فى الفنون والصنائع الدقيقة وكانوا يعتبرونهم مثلا أعلى فى اتقان فن التصوير . ولا أدل على ذلك من أن أحد شعراء الفرس فى العصر الاسلامى يقول فى وصف حبيبته ان شفتها الجميلة تبدو كأنها رسمت بريشة مصور صينى [٢] .

وقد كتب ابن الفقيه الهمذانى [٣] (توفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل العاشر الميلادى) أن الله عز وجل خص أهل الصين باحكام الصناعة ، وأنه منحهم فى ذلك ما لم يمنحه أحدا غيرهم فكان لهم الحرير والغضائر الصينى والسروج الصينى وغير ذلك من المنتجات الدقيقة المحكمة .

وتحدث المسعودى (توفى سنة ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م) عن ملك من ملوك الصين شيد السفن وأرسل عليها وفودا الى البلاد المختلفة « تحمل لطائف بلاد الصين ، فلم يردوا على أهل مملكة الا وأعجبوا بهم واستظرفوا ما أوردوه من أرضهم » [٤] وذكر المسعودى [٥] أيضا أنهم لم يعبدوا الأصنام فحسب بل كانوا يعبدون الصور ويتوجهون نحوها بالصلوات .

وقد كتب أبو منصور الثعالبى [٦] (توفى سنة ٤٢٩ هـ = ١٠٣٨ م) نبذة عن

---

(١) انظر : بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٨٥

(٢) P. Horn : Geschichte der Persischen Literature p. 78

Ph. W. Schulz : Die Persisch-Islamische Miniaturmalerei, ص ٤٤ (ليبزج ١٩٠١) ،

(٣) مختصر كتاب البلدان (ليدن ١٨٨٥ م) ص ٢٥١

(٤) مروج الذهب ج ١ ص ٨٠ — ٨١

(٥) نفس المرجع ص ٨٢

(٦) لطائف المعارف ص ١٢٧ وما بعدها .

مهارة الصينين فى الفنون ، نقلها عنه النويرى[١] (ت سنة ٧٣٣ هـ = ١٣٣٣ م) . قال : «وأما الصين وما اختص به فان العرب تقول لكل طرفة من الأوانى «صينية» كائنة ما كانت ، لاختصاص الصين بالطرائف وأهل الصين خصوا بصناعة الطرف والملح وخرط التماثيل والابداع فى عمل النقوش والتصاوير « حتى ان مصورهم يصور الانسان فلا يغادر شيئا الا الروح ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل ، وبين المبتسم والمستغرب ، وبين ضحك المسرور والهادىء ، ويركب صورة فى صورة » .

ومما تخيله الشاعر الفارسى نظامى (المتوفى سنة ٥٩٩ هـ ، ١٢٠٣ م) فى قصته الشعرية « اسكندر نامه » مباراة فى التصوير بين فنان رومى وآخر صينى وذلك فى حضرة الاسكندر وخاقان الصين .

وقد ترجم الأستاذ توماس أرنولد حديث هذه المباراة فى كتابه التصوير فى الاسلام Painting in Islam. ونجد أن نظامى لا يختم قصة هذه المباراة ببيان الفائز فيها ، بل يكشف ميدانا جديدا من المهارة عند أهل الصين ، فيذكر أن المصور الرومى عكف على رسم صورة على القبو الذى أعد له ، وبينه وبين زميله ستار يفصله عنه ولا يرفع قبل اتمامها التصوير . وبينما كان الرومى يفعل ذلك أقبل الفنان الصينى على تلميع الجزء الذى أعد له ، فلما رفع الستار انعكست صورة الرومى على الجزء الذى أتقن الصينى تلميعه فظهر كأن لا فرق بين الصورتين ، وعجب المشاهدون لهذا الشبه العجيب بين الرسمين ، ولكنهم لم يلبثوا أن أدركوا السر فى ذلك كله[٢].

ومن النصوص التى جاء فيها ما يشهد باعجاب المسلمين بالخزف الصينى حكاية فى باب فضل القناعة من كتاب گلستان « لسعدى » الشاعر الايرانى (المتوفى سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م) ، تحدث فيها عن تاجر ثرثار أخبره أنه يستعد لرحلة جديدة ، فسأله سعدى أين تكون تلك السفرة . وأجاب التاجر : « أريد

---

(١) نهاية الارب فى فنون الادب (طبعة دار الكتب المصرية) ج١ ص ٩٦٦

(٢) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٨ — ٢٩ وما ذكره من مراجع .

أن أحمل الكبريت من ايران الى الصين ، فقد سمعت أن له قيمة عظيمة فيها . ومن هنالك آخذ الخزف الصينى الى بلاد الروم »[١] .

وكتب الرحالة ابن بطوطة (القرن ٨ هـ ، ١٤ م) ان الخزف الصينى هو أبدع أنواع الفخار[٢] ، كما تحدث عن مهارة أهل الصين فى الفنون فقال : « وأهل الصين أعظم الأمم احكاما للصناعات وأشدهم اتقانا فيها . وذلك مشهور من حالهم ، قد وصفه الناس فى تصانيفهم فأطنبوا فيه . وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى احكامه من الروم ولا من سواهم فان لهم فيه اقتدارا عظيما . ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أنى ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها الا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد موضوعة فى الأسواق . ولقد دخلت الى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ووصلت الى قصر السلطان مع أصحابى ونحن على زى العراقيين فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتى وصور أصحابى فى كاغد قد ألصقوه بالحائط فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه لا تخطى شيئا من شبهه . وذكر لى أن السلطان أمرهم بذلك وأنهم أتوا الى القصر ونحن به ، فجعلوا ينظرون الينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك . وتلك عادة لهم فى تصوير كل من يمر بهم وتنتهى حالهم فى ذلك الى أن الغريب ، اذا فعل ما يوجب فراره عنهم ، بعثوا صورته الى البلاد وبحث عنه فحينما وجد شبه تلك الصورة أخذ »[٣] .

وكتب ابن الوردى[٤] (القرن الثامن الهجرى والرابع عشر الميلادى) أن أهل الصين « أحذق الناس فى الصناعات والنقوش والتصوير وأن الواحد منهم ليعمل بيده من النقش والتصوير ما يعجز عنه أهل الأرض . وكان من عادات ملوكهم أن الملك منهم اذا سمع بنقاش أو مصور فى أقطار بلاده أرسل اليه بقاصد ومال ورغبة فى الاشخاص اليه ... » .

---

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٢٩ وما ذكره من مراجع .

(٢) رحلة ابن بطوطة (الطبعة الأوربية) ج ٤ ص ٢٥٦

(٣) رحلة ابن بطوطة ص ٢٦١ — ٢٦٣

(٤) خريدة العجائب وفريدة الغرائب (طبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٣٩ م) ص ٥٢ — ٥٣

كذلك ذكر ابن الوردى أن ملك الصين اذا كان له عدة أولاد « ثم مات ، لا يرث ملكه منهم الا أحذقهم بالنقش والتصوير » .

وقد ذكر ابن خلدون[١] (القرن ٨ هـ ، ١٤ م) الصين بين الأمم التى اشتهرت بكثرة صنائعها . قال فى الكلام عن أن العرب أبعد الناس عن الصنائع : « ... ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه فى الاسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب اليه من قطر آخر . وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الأمم من عندهم » .

كذلك كتب أبو الفدا [٢] (القرن ٨ هـ ، ١٤ م) أن أهل الصين « أحذق الناس فى الصناعات » وأنهم « أحذق خلق الله تعالى بنقش وتصوير بحيث يعمل الرجل الصينى بيده ما يعجز عنه أهل الأرض » .

وقد جاء فى ترجمة فارسية من كتاب كليلة ودمنة (تمت فى نهاية القرن ٩ هـ ، ١٥ م) ذكر مهارة أهل الصين فى الفنون ، وذلك فى معرض مدح مصور ، قيل عنه انه « حين يرسم بريشته وجوها ، فان أرواح مصورى الصين تتحير فى وادى العجب ، كما قيل عنه أيضا « ان عبقريته جعلت قلوب أولئك الفنانين الصينيين تغمر وتغلب على أمرها فى صحراء الدهش » [٣] .

ومن دلائل الاعجاب بمهارة الصينيين فى التصوير ما تخيله الشاعر الايرانى عبد الرحمن الجامى (القرن ٩ هـ ، ١٥ م) فى منظومته « يوسف وزليخا » فقد جعل فيها امرأة العزيز تطلب مصورا صينيا ليرسم صورا لها وليوسف [٤] .

والواقع أن الفنانين فى ديار الاسلام أقبلوا على تقليد التحف الصينية ولا سيما الخزف ، كما قلدوا زخارف المنسوجات الحريرية الصينية ، ورسموا

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ، الفصل الحادى والعشرين « فى أن العرب أبعد الناس عن الصنائع » .

(٢) انظر : أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ١٠٢

(٣) راجع : الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٣١ ، Th. Arnold : Painting in Islam ص ٦٩

(٤) الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الاسلام ص ٣١ وما ذكره من مراجع .

صورا بديعة على الطراز الصينى ، وأقبلوا على جعل السحنة فى رسم الأشخاص على تحفهم وفى مخطوطاتهم مغولية الى حد كبير على الرغم من أنهم لا ينتمون الى الجنس الأصفر . كذلك تأثر الفنانون فى الاسلام بالرسوم الصينية فى الدقة ومحاكاة الطبيعة فى رسوم الحيوان والنبات وفى استعمال الألوان الهادئة ، وفى احتمال الفراغ فى الزخرفة خارجين بذلك على القاعدة التى نعرفها فى الفنون الاسلامية عامة وهى الهرب من الفراغ والعمل على تغطية المساحات كلها بالرسوم والزخارف ، كما نقل الفنانون فى ديار الاسلام بعض الموضوعات الزخرفية عن الفنون الصينية مثل رسوم بعض الحيوانات الخرافية ورسوم السحب الصينية .

وطبيعى أن أثر الفنون الصينية كان واضحا فى شرق العالم الاسلامى دون غربه لأن شرق العالم الاسلامى كان بحكم الموقع الجغرافى على صلة بالصين ، وكان التأثر ظاهرا فى الزخارف ومنتجات الفنون الزخرفية دون العمارة لأن التحف الصينية المنقولة هى التى تأثر بها الفنانون فى ديار الاسلام[١].

---

(١) راجع ماكتبه الدكتور زكى محمد حسن فى كتابه الصين وفنون الاسلام عن مظاهر الأثر الصينى فى الفنون الاسلامية وما أشار اليه من مراجع وما أتى به من أشكال ص ٣٣ — ٧٤